
2020
30.12.2019


اميل حبيبي
الآثار الكاملة


اميل حبيبي


إخطيّة



اميل حبيبي

إخطيّة



إخطيّة

رواية





إميل حبيبي
إخطيّة
رواية
(الطبعة الأُولى صدرت عام ١٩٨٥)

Emile Habiby
Ikhtayyah

النّاشر: دار عربسك للنشر، حيفا
المحرِّرة: سهام داوود
تصميم: شريف واكد

ISBN 965-7388-03-1

الموزع الرئيس: مكتبة كل شيء – حيفا

ساهم في إصدار هذه الأعمال مؤسسة عبد المحسن القطّان



Arabesque Publishing House
P.O. Box 6370, Haifa 31063



«لك يا منازل في القلوب منازل

أقفرت أنت وهنَّ منك أواهل

وأنا الذي اجتلب المنيّة طرفه

فمن المطالب والقتيل القاتل»؟

(أبو الطيِّب)

احتراس

وجدتني لأوّل مرّة مضطراً إلى تصدير روايتي هذه بالاحتراس التقليدي الذي تواضع عليه كتّاب الغرب. وهو أن هذه الرواية هي بنت خيالي الشرقي المجنَّح. ولذلك فإن أي شبه بين شخصيّاتها، أو إحداها، وبين أشخاص واقعيين هو ابن عَرَض ما جنحت إليه عن قصد. بل أكاد أقول، دفعًا للشُّبهات، إن أي شبه بين حيفا هذه الرواية وبين حيفا هذه البلاد هو محض هذيان نوسطالجي!

لقد فتّشت، في الروايات الغربية الموجودة في مكتبتي، عن نص تقليدي لهذا الاحتراس أُترجمه وأنجو بقلمي فأدهشني خلوُّها من هذا الاحتراس. فإمّا أن يكون بُعدها عن أي واقع فاقعًا حتى لا حاجة إلى احتراس. وإما أن يكون الزلف فيها أمينًا حتى لا داعي إلى أي احتراس!

ترى، هل الأمر الذي جعلني في حاجة إلى هذا الاحتراس، هذه المرّة، هو اهتزاز ثقتي بقيام حريّة الحنين إلى هذه البلاد في هذه البلاد – إلى حيفا في حيفا؟

(المؤلف)

الدفتر الأول

شخوص

« وفي هذه السنة ظهر للمعتضد شخص في صور مختلفة في داره. فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرُهبان.. وتارة يظهر بيده سيف مسلول.. فكانت الأبواب تُؤخذ، وتُغلق، فيظهر له أين كان في بيت أو صحن أو غيره. وكان يظهر له في أعلى الدار التي بناها. فأكثر الناس القول في ذلك واستفاض الأمر واشتهر في خواصّ الناس وعوامّهم. وسارت به الرُكبان وانتشرت به الأخبار والقول في ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم ».

(مروج الذهب)

(١)

سيف من السماء مسلول

كان والدي، الذي لم يحمل معه من القرية إلى المدينة من متاع الدُّنيا سوى عصا يتوكّأ عليها، وأُخوتي الكبار يتوكّأ عليهم، ووالدتنا، وهي حامل بي، يتوكّأ عليها، وحكايات السّامر، هو أوّل من ألقى علينا لغز الأمير الفاضل الذي لم يهتدِ إلى حلِّه سوى ابن الوزير الأصغر.

قال: كانوا ثلاثة شبان أذكياء، أبناء الوزير الراحل. فشاء الأمير الفاضل أن يعهد بالوزارة، بعد والدهم، إلى أفضلهم. فاختبر فطنتهم بأن اجتزأ أربع دوائر صغيرة من ورق ملوَّن: ثلاثًا منها حمراء والرابعة خضراء. وألصق على جبين الواحد منهم، وهو معصوب العينين، مستديرة واحدة. وأخفى واحدة. فإمّا أن تكون حمراء وإمّا أن تكون خضراء. ثم أوقفهم مواجهة – «بستٍّ عيون» – أي حل العصائب عن عيونهم حتى تتساوى، بالبصر، بصائرهم. وقال: إن من يسبق أخويه في الاهتداء إلى لون الورقة الملصقة على جبينه يكون أشدّهم فطنة. فأعهد بالوزارة إليه. ومن هنا، والله أعلم، جاء قولنا: «يفطن إلى الشيء»، أي يتذكّره ولا ينساه.

فاعتراهم الوجوم برهة. وظلوا صامتين متحيِّرين في أمرهم فيما كانت الدقائق تمرّ سراعًا. حتى إذا مضت ساعة من الزمن وهم حيارى، لا ينبسون ببنت شفة، فطن أصغرهم إلى سبب هذه الحَيْرة. فصاح: فوق جبيني ورقة حمراء.

كان والدي يدقّ الأرض بعصاه، إيذانًا بانتهاء «الحدوثة»، ثم يلقي علينا السؤال: فكيف اهتدى «قريد العش» إلى لونها؟

كنّا، بعد، صغارًا لم نَبْلُ عامل «مرور الزّمن» ولا بلانا. ولذلك كان انتباه الواحد منّا إلى هذا العامل – مرور الزمن على الأُخوة الثلاثة دون أن يهتدوا إلى حل اللغز – دليلاً على فطنة المهتدي. وكنتُ منذ الصِّغر، بشهادة الوالد رحمه الله، فطينًا.

كبرتُ الآن. فلم يعد مرور الزّمن مجرّد عامل بل أصبح الحياة كلّها، إلاّ بقية، إن شاء الله، من حُسن ختام. ومع ذلك، والحقُّ يقال، لم أفطن، إلاّ أخيرًا، إلى أن مرور أكثر من عشر سنوات على يوم «السكتة القلبية»، التي عطّلت الحركة في شرايين مدينة حيفا، دون اهتداء الناس والمسؤولين عن الناس إلى سببها أو إلى أسبابها – هو مفتاح هذا اللغز. كما كان مرور الزمن، ولو ساعة، مفتاح اللغز في حكاية الأمير الفاضل وأبناء الوزير الثلاثة.

فالمدهش في الأمر الأكثر انتشاراً، الأمر الأشدّ بساطة، «المفهوم بذاته»، أن بصائرنا تعجز عن رؤيته.

عن أية «سكتة قلبية» أتحدّث؟ عن تعطُّل حركة السيارات، عن الازدحام الذي وقع قبل أكثر من عشر سنوات، بدءًا من ملتقى شارع «هحالوتس» وشارع «الأنبياء»، ثم غمر شوارع حيفا كلِّها، وأخذ يمتد حتى مشارف عكا شمالاً، ومشارف تل أبيب جنوبًا.

أعلم أن الناس آثروا نسيان هذا الحادث، واقعة وسببًا، جملة وتفصيلاً، حين عجز المسؤولون عن كشف أسراره. فجعلني هذا «النسيان الجماعي» أظنّ الظنون بأمري، لأوّل وهلة. فهل أنا مخمور كما اتّهمني واحد من خلق الله ممّن لم يتعاطوا، في حياتهم، الخمرة والابتسامة ولم يلتقوا، في حياتهم، الغول والعنقاء والخِلّ الوفيّ، ويعتبرون سرور الفقراء وحبورهم اعتداء على ممتلكات أولاد النعمة؟

فإن بيني وبين هؤلاء العبوسين، محتداً ولحداً، معرفة قديمة - منذ أن كنّا نستأجر الدرّاجات الهوائية، في العطلة الصيفية، ونخوض بها وحل نهر النعامين، ضاحكين، وكانوا يقطعون الجسر بسيّارات آبائهم عابسين. فلما ضجّت الأرض والسماء بلهونا وبضحكنا، في عرس واحد منّا، عبسوا واستشاطوا غضبًا، معتبرين عرس الفقير تطفُّلاً على ما خصّ به الله أولاد

النِّعمة. وكان هؤلاء العابسون أوّل الراحلين بنعمة سياراتهم الخصوصية. وبقيَتْ منهم فئة ظلّت تتوالد تحت الأرض حتى كبرت فخرجت إلى النور عابسة، وهي تحسب أن عنترة العبسي جاء من العبوس.

فلما تذكرتُ هذه الفصيلة الشاذّة أيقنتُ أنني كما الناس: اهتدوا إلى حل اللغز فلم يصدِّقوا أنفسهم. إذا كان الأمر على مثل هذه البساطة فكيف لم يهتد إليه الناس الآخرون، فأُصيبوا بدهشة فوق احتمال البشر، فآثروا محوَه من الذّاكرة؟ فإن «الباب الذي يأتيك منه الرِّيح سدّه واستريح» (استرح)!

كنت واجهت ظاهرة «نسيان الرحمة». فوجدت أن مثلها مثل «انتحار الرحمة». يلتجئ إليه الإنسان حيت تدهمه «معرفة موجعة»: التعرُّف الفجائي على الموت، مثلاً. فهل من الممكن أن يعمّ «نسيان الرحمة»، في لحظة واحدة، الناس أجمعين؟

أعرف عن صديق اصطدمت سيارته، وهو يسوقها، بسيارة انقضّت عليه مواجهة، أنه أُغمي عليه. فلم يستيقظ إلاّ بعد مرور عدّة أيام على الحادث وهو في المستشفى. فما الذي حدث وكيف وقع الاصطدام؟ امّحت من ذاكرته، محواً تامًا، وقائع اللحظات التي سبقت واقعة الاصطدام. ولا يتذكّر هذا الأمر حتى يومنا هذا. ولن يتذكّره.

أم أصابهم ما أصاب نيوتن، من غير دماغ نيوتن التحليلي،

حين تساءَل عن سبب سقوط التفاحة؟ كم من أسرار علمية تظل منغلقة عن علومنا فيما هي، في الواقع، ملقاة على قارعات الطرق تتدحرج بين أقدامنا أو تقع فوق رؤوسنا، تنتظر جرأة أرخميديسية: «وجدتُها وجدتُها»؟! إن التساؤل هو مفتاح المعرفة. والمعرفة هي سبر أغوار جديدة – مناجم موجودة ولكنها مطمورة. التساؤل هو تهديم صخور لشقٍّ منجم جديد.

في الجاهلية جاء تساؤل قُس بن ساعدة الإيادي – يداً تقلع صخرة: «إن في السماء لخبرًا وإنَّ في الأرض لَعِبَرًا. ما بال النّاس يذهبون ولا يرجعون؟». نيوتن فطن إلى وجود قوّة طبيعية هي الجاذبيّة. وقاسوها وحدّدوها وأسرجوها وامتطوها وأطلقوا أعنّتها. ولكن، لماذا هي موجودة؟ كيف تحوّلت القوّة الطّاردة إلى قوّة جاذبة نحو مركز هذا الكوكب الدائر حول مركزه؟ تصوّروا انزياح ستر هذا الخباء عن بصيرة انسان عادي، مثلي ومثلك، «رجل الشارع» مثلي ومثلك؟ لم أقل: «امرأة شارع» أو «أولاد شوارع»، لأننا في حاجة إلى المزيد من لظى المعرفة حتى نشعل النيران في العديد من الأَقبية المظلمة المتوارثة. تظلّ هذه الأسرار مغلقة في وجوهنا ما بقينا نتعامل معها تعامُل المتلصِّص، عبر شقّ في ستارة نافذة، من الخارج، على جسد متجردة في خِدر أُسدلت ستائره. فما الذي يمنعنا

عن تخطّي العتبة والعبور إلى الداخل؟

وهل كان « رجل الشارع » هذا يجرؤ على البوح بالسرّ؟

لماذا نذهب بعيداً، في الخيال؟ ألم نقرِّر، قراراً إجماعيًّا يستوي فيه المحكوم بالإعدام مع الجلاّد، والجندي في الميدان مع وزير الحربيّة، والمسنّ الذي يحبو على ثلاث مع الطفل الذي يحبو على أربع، والسمكة الصغيرة الفريسة مع السمكة الكبيرة المفترسة، تجاهل الموت، وأن الحياة، بالموت الحتمي، عبثٌ؟! وحين تجاهل « مؤدِّب الخلفاء »، العروضي، هذا التجاهل، هذا القرار الإجماعي، أخطأ في تصنيف « من يكري نفسه للقتل يعني المرتزقة من الجند » على أنه « أعجب العجب » . فهذا الجندي، المرتزقة، مثله مثل غيره من النّاس، شريك في القرار وفي الفرار.

هل تصدِّقونني إن أخبرتكم – وها أنا فاعل – بأن مخلوقاً من الفضاء الخارجي أوقف سيارتي في طريقي، ليلة، عائداً من عكا إلى حيفا؟ كان شاهق القامة، رأسه في الغيوم وقدماه منفرجتان على عرض الطريق، عبرتُ من تحتهما دون أن ألوي على شيء، ودون أن ألوي رقبتي إلى يمين أو إلى شمال؟

وهل تصدِّقونني إذا أخبرتكم، وها أنا فاعل، بما شاهدناه، جماعة من هواة صيد السَّمك، من « غول » أقعى لنا على يمين الطريق حين كنَّا عائدين من شاطئ جسر الزرقاء إلى حيفا،

منتصف ليلة، على الطريق القديم؟ لم ننقسم بين مصدِّق ومكذِّب، بل بين خائف رفض العودة، بسيارتنا، إلى مكان « الغول » الذي أقعى لنا، وبين جريء واثق بنفسه، وبما شاهده، وأصرَّ على العودة. وبقينا على هذا المنوال لا نمرّ في ذلك المكان إلاّ في منتصف الليل حتى دهمتنا، منتصف ليلة، بقرة شرود عبرت الطريق من يمينه إلى يساره.

ولولا ما قرأته، مؤخّرًا، عمَّا رواه الرحالة المسعودي في « مروج الذهب » ممّا كان رُكّاب المراكب الشراعية يشاهدونه، في الزمان الأول، من مخلوقات عجيبة، لما تجرّأت على مجرّد مساءلتكم: هل تصدِّقونني إن أخبرتكم عمّا أُشاهده أنا أيضًا، وها أنا فاعل؟

أمّا أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي فقد روى عن « بحر الصين » انه « بحر خبيث كثير الموج والخبّ ». قال: « وتفسير الخبّ الشِّدّة العظيمة في البحر ».

قال: « وذلك أن البحر، إذا عظم خبّه وكثر موجه، ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم نحو خمسة أشبار، أو أربعة، كأنّهم أولاد الأحابيش الصغار، شكلاً واحدًا وقدًّا واحدًا. فيصعدون على المراكب ويكثر منهم الصعود من غير ضرر. فإذا شاهدوا ذلك تيقّنوا الشدّة. فإن ظهورهم علامة للخبّ. فيستعدّون لذلك ».

قلت: أمّا أنا فحين أُشاهد هذه الأقزام، وأُشاهدها، أتيقّن أن الشدّة تشدّني، وأنني أُصارع الخبّ حتى لا يغرقني تحته.

فكم من ليلة عدت فيها، بسيارتي، منهوك القوى من شدّة القهر، فظهرت لي في وسط الطريق مخلوقات قَزَميّة «طول الواحد منهم نحو خمسة أشبار أو أربعة.. شكلاً واحدًا وقدًّا واحدًا». فإمّا أن يكونوا في شكل بن غوريون صغير، أو في شكل ديّان صغير. ولا يلتقيان، أمامي، في وسط الشارع. فإما عشرات البناغرة الصغار، «شكلاً واحدًا وقدًّا واحدًا»، وإما عشرات الديّانات الصغيرة، «شكلاً واحدًا وقدًّا واحدًا». وحين كانوا يظهرون، في وسط الشارع أمامي، كنت أتحول بالسيارة إلى هذا الجانب أو إلى ذاك الجانب من الطريق. فاذا تكاثروا عليّ أوقفت السيارة دونهم فأنام أو أن يحلّوا عنّي. وكانت هذه «الأحابيش» تمر، أحيانًا، من تحت سيّارتي دون أن يصيبها أو يصيبني سوء. ويؤسفني أن أعترف بأن شرف هذا الظهور أمامي، في ليالي الشّدّة والخبّ، وهي مستمرة وتشتدّ حتى يومنا هذا، لم يقيَّض لأحد سوى بن غوريون الصغير وديّان الصغير. لقد ذهبا وحلّ محلّهما سواهما. غير أنهما لم يحلاّ عني، «أحابيش»! كنت أتمّنى أن يخلفهما، مثلاً، بيغن صغير أو شامير صغير. فهو ملائم «شكلاً وقدًّا». أو، تصوّروا، أريئيل شارون صغير. ماذا سيبقى منه، «شكلاً

وقدًّا»؟ ولكن، ما بالعين حيلة.

فهل ظهور هذه «الأحابيش»، في عزّ الظُّهر، هو السبب في «جلطة المواصلات» الشهيرة والمنسية، «نسيان الرحمة» في حيفا؟

لقد استطعنا، في الجريدة، الكشف عن أسرارالتّحقيق الذي أجرته الشرطة في الأمر. ونعلم أنها لم تترك «خيطًا» إلاّ التقطته ومضت فيه حتى نهاية الديماس. فلم تجد، في آخره، سوى ديماس آخر، بما في ذلك أن يكون ظهور «مخلوق فضائي» هو السبب في حدوث تلك «الجلطة».

ولما شاءَت الأقدار أن أكون، بسيّارتي، بين أوائل السائقين شاردي اللبّ في تلك الزحمة، فقد توقّعت من هيئة التحقيق في الحادث أن تستجوبني بشأن هذه الفرضية. بل انتظرت، بجريرة رجل الفضاء في «المتشائل»، أن تطلب منّي أن أكون «شاهد ملك» في القضية.

ولكنّها، لأمر ما، تركتني وشأني على الرغم من إلحاح ثلاثة من شهود العيان على هذا الأمر، وقفوا في مواقع متباعدة وشهدوا بأنهم رأوا، بأُم العين، صحنًا طائرًا يحوم فوق رؤوسهم ثم يطلق من تحته بريقًا أشدّ سطوعًا من نور الشمس في الهاجرة. وكانت الشمس في الهاجرة. ويمتد إلى الأرض كأنّه الصاعقة. أو السيف المسلول. ثم يهبط عليه إلى الأرض رجل

طويل القامة كأنه المئذنة طولاً والتفافًا. يرتدي عباءة تونسية بيضاء. وأصرّ قادم من العراق على أنها دشداشة. أمّا الشاهد الثالث، وكان امرأة نَصَفًا من مواليد طبريا، فاكتفت بالقول: إنها ممّا كان يرتديه جيراننا العرب. ولكنهم اتّفقوا على أمر واحد وهو أنهم شعروا بألم كما لو أن ذلك السيف الضوئي المسلول اخترق صدورهم كما يخترق السَّفّود صدور الفراريج المشويّة، أو صدور سكان تلك الجزيرة النائية التي وقع عليها السندباد البحري فيما كان الغيلان، المخلوقون بعين واحدة، يحكمونها ويأكلونهم شيًّا.

لم يكن سلاح أشعة ليزر، الذي قيل إن كتائب التدخُّل السريع الأمريكية قد زُوّدت به الآن، معروفًا في بلادنا. كما كنّا نعيش، بعد، فيما قبل عصر «حرب النجوم». ولذلك لم يطل اهتمام صحف المساء بالروايات عن الصحن الطائر، والسيف الضوئي المسلول من تحته، وذي العباءَة أو الدشداشة الهابط عليه إلى الأرض طويل القامة كأنه المئذنة.

بل لم تفُت علينا محاولات الدوائر المسؤولة إسكات هذه التقوُّلات التي من شأنها تعظيم قدرة العدو العربي، أو حتى العدو السوفييتي، في أعين سكان الدولة الذين لُقنوا أن العرب لم يخرجوا في حروبهم، بعد، من عهد السيف والتُّرس، وأن الروس لم يهتدوا، بعد، إلى شارات المرور الضوئية. ولم يقلِّل

من نجاح محاولاتهم هذه قيام ثلاث منظمات فلسطينية، على الأقل، بنسب عملية الصحن الطائر، وذي العباءَة، أو الدشداشة، إليها. أمّا جامعة الدول العربية فالتزمت الصمت عملاً بالحكمة التي التزمتها منذ ضياع فلسطين: «تكلّم السيف فاصمت أيها القلم»، أو أيها الفم. فكيف وقد كان هذا السيف، هذه المرّة، سيفًا ضوئيًا مسلولاً في رائعة النّهار؟ أو تكون قد صمتت، هذه المرّة، في انتظار قرار جماعي تقرّه قمّة قادمة. والله أعلم.

غير أن صحف الصباح وصحف المساء استمرت، لبضعة أيام أُخرى، في الاهتمام بأقوال المرأة الطبرانية عن تفصيل الثوب المرسل الذي ادّعت أنها شاهدت رجل الفضاء، الهابط على سيف السماء المسلول، يرتديه وقالت عنه إنه «ممّا كان يرتديه جيراننا العرب».

فمن المعلوم أنه لم يبق لسكان طبريا جيران عرب في طبريا. فلمّا كانت سوريا من جيرانهم الأقربين فقد التجأ أكثرهم إلى ذلك الجار. والدار بالدار والجار بالجار. فلمّا دار عليهم الزّمن وجار التجأوا إلى ديار الجار. وأقلهم التجأ إلى كفر كنا والناصرة. فانتسبوا إلى المؤرِّخ الطبري. وعرفوا باسم الطبري والطبراوي مع أن طبرية محمد بن جرير هي من طبرستان. ولكنّهم لم يعرفوا بأردية مرسلة خاصة، بيضاء، كانوا يرتدونها

حين كانوا في مسقط رأسهم جيرانا لجيرانهم اليهود في طبريا.

فهل عادوا؟

كانت أجوبة المرأة الطبراوية مبهمة. وحملناها على محمل عدم نسيانها العيش والملح. أمّا المسؤولون فألحّوا عليها بالسؤال: هل قاموا بزيارتك؟

أجابتهم بأنها تسكن، منذ أن وضعت الحرب أوزارها، في حيفا، وتزوّجت برجل أشقر قادم من پولندا. وتعمل ممرضة في مستشفى «الكرمل». ولها جيران عرب ولكنهم ليسوا من طبريا ولا من طبرستان. فهل علمت بفلسطينيين لاجئين زاروا جيرانها العرب في الزّمن الأخير؟ قد يكون – قالت. ولكن الطبرانيين عاجزون عن زيارتهم لأنهم موجودون في سوريا.

أطلق هذا الجواب سلسلة من مقالات ظهرت في الصحف أنشأها مستشرقون ومستشارون أكدوا فيها، بالأرقام البيِّنات، أن الفلسطينيين لا يعجزون عن العودة إلى بلادهم، ولو زيارة يا ربيع، وعلى رأسهم الطبرانيون.

ويعودون عبر الجسر، ورأس الناقورة، وعبر جزيرة قبرص. ويكونون قادمين من الكويت ومن السعودية، فكيف لا يأتون من سوريا؟!

وأحصى مستشار، في مقالة، ثلاث فتيات فلسطينيات

طبراويات قَدِمْن من سوريا وتزوّجن أقرباء لهن في إسرائيل. اثنتان منهن يسكنّ حاليًا، كما قال، في الناصرة. والثالثة في قرية طرعان. فهل كان أزواجهن، أقرباؤهن، من مواليد طبريا؟ ليس بالضرورة. فالطبراني، منذ أيام أبي الطيِّب المتنبّي، هو كل من انتجع شاطئ البحيرة في شتاء وورد ماءها في صيف. ولذلك تجدهم منتشرين، حتى قبل كارثة النشور، ما بين الفرات والنيل. وقد يكون أبو الطيِّب لم يسمع سوى زئيرهم حين قال:

« وَرْدٌ، إذا وَرَدَ البحيرة شاربًا،

وَرَدَ الفراتَ زئيرُه والنِّيلا »

ولو لم يتنبّأ، في صغره، لما وجدوا له لقبًا خيرًا من هذه البحيرة، ولكانوا أبقوه لنا باسم أبي الطيّب أحمد الطبري، علمًا بأن طبرية لم تخلُ، منذ ذلك الزّمان، من الشعراء ومن صيّادي السمك. وكلاهما شاعر ولا خيل عندهم ولا مال.

فكيف يعجزهم مقامهم الحالي عن العودة – تساءل المستشار كاتب المقال؟!

قالت: كانوا يُلبسون أولادهم ثوب الخام الأبيض، على اللّحم. وكانوا يسمُّونه « الشنطة ». فأخذناها عنهم. وقال أجدادنا هم الذين أخذوها عنّا.

بحثت، في « القاموس المحيط »، عن أصل « الشنطة » هذه،

فلم أجد أقرب إليه من الثوب «الشماطيط»، وهو «الخلق المتشقِّق» والضارب لونه إلى البياض. وقد يكون أجدادنا قالوا: الثوب «الشمط». فلمّا تجاوروا، في طبريا، تمازجوا فقالوا: «الشنط» و«الشنطة». وحملوها إلى حيثما ورد زئيرهم، من الفرات حتى النيل.

ولولا ما في الاسترسال في تهمة عودة الطبراويين من عواقب وخيمة لظل المحقِّقون يستجوبون هذه المرضة الحيفاوية، ذات الأصل الطبراوي، في الأمر، حتى ينتزعوا منها اعترافًا بِصِلة قربى، أو، على الأقل، جيرة مع صلاح الدين الأيوبي الطبراوي، أو مع طبيبه اليهودي موسى بن ميمون الذي يسمُّونه، تنصُّلاً من هذا الأصل، «رمبام»، وسمّوا باسمه مستشفى الحكومة القديم في حيفا القائم على شاطئ حيفا القديمة حتى يومنا هذا، وكنا نسمّيه باسم طبيبه الأوّل الشهير، الدرزي العربي، «مستشفى الدكتور حمزة».

ولم يكفّوا عنها، أيضًا، إلاّ بعد أن علقوا بخيط آخر وجدوه يفضي إلى فسحة يتبحبحون فيها ويتفسَّحون على هواهم، فسحة لا عدّ ولا حصر لمنافعها الأمنية، حتى كأنها الباذنجان، قشرًا ولبًّا وبذورًا.

(٢)

الجلطة

شاء القدر، في ذلك اليوم المنسي، أن تكون سيارتي - وأنا سائقها - بين أوائل السيارات التي توقفت طويلاً، لسبب مجهول، أمام شارة المرور الضوئية القائمة عند مصب شارع «هحالوتس» في شارع «الأنبياء». توقّفنا، سيّارتين سيّارتين، في صفّين متجاورين، السيّارة وراء أُختها السيّارة، بالإضافة إلى صف من سيارات التاكسي، الرابضة في موقفها على الرصيف الأيمن من الشارع تنتظر ركابها إلى عكا، أو إلى تل أبيب، وإلى صفّ من السيارات الخصوصية أوقفها أصحابها على الرصيف الأيسر من الشارع، ونزلوا يتبقّلون أو يستفكهون (يشترون الفاكهة)، ينتقونها، بالنّظر، من على بسطات وقف أصحابها أمامها ينادون على ما فيها من خضار، ومن فاكِهة، رتّبوها أهرامات من الكرات الخشبية الملوّنة. فذلك هرم من البندورة الحمراء، قانية بلون زمِكّ ديكنا الفحل، بكّاك عشر دجاجات، أو سحنة المدير الإنچليزي الذي كان يزور أخي الكبير في بيتنا متورِّد الوجنتين، أصفر العُرف. فأنعمت عليه الوالدة، رحمها الله، بهذا التشبيه فقالت:

سحنته بلون زمِكّ ديكنا. وذلك هرم من الإجّاص الخشبي الأصفر الباهت لا ماء فيه ولا حياء، كأنّ أشجاره ذبلت أو أُصيبت بعسر الهضم، منذ أن « ذهب العرب ». وتلك أهرام من التفاح المتعدِّد ألوان الخدود وأقطار الخصور. منظر خلاّب. وطعم أشبه بنشارة الخشب. سقى الله أيام التفاح القرقشاني الذي كان يأتينا من « البهجة » بالقرب من عكا: خدّ أحمر، وخدّ أصفر، وطعم أشبه بطعم « عقيدة » أو « عصيدة » الصبايا: حامض على حلو. فمنذ أن اهتدى وزير الزراعة، في أوائل الستِّينات، إلى حبة البندورة الصغيرة ذات القشرة القاسية وأنها صالحة للتصدير، فسمّاها « موني ميكار » - أي « صانعة المال » - أصبح صراع البقاء في بساتيننا موجّهًا نحو الأفضل في التصدير، وفي صنع العملة الأجنبية، شأنه شأن السماد الاصطناعي. فاختفى التين الغزالي، ذو الفم الذي يسيل عسلاً، والمشمش اللوزي، الذي جمع فتيان سيلة الظهر شملنا به بعد العام ١٩٦٧. أما اليوسف أفندي، ذو الرائحة الأخّاذة التي تعيد الشيخ إلى صباه، والقشرة المتجرِّدة بمجرد الإشارة، والطعم الممتنع، فقد بقينا، حتى العام ١٩٨٢، نخفي سر بيّارته الباقية، في أراضي قرية البصّة، ونشتريه من صاحبه العربي البصّاوي الوحيد الباقي، نحن وأهالي كفر ياسيف، في المواسم. حتى جئناه في العام التالي فوجدنا البيارة قاعًا

صفصفًا وأرضًا محروثة. فسألناه عن السبب. قال: أولادي قرروا اقتلاعها لأنها لا تصنع مالاً. فتعزّينا بالمندلينا وبالكلمنتينا. ولكنّهما ليستا اليوسف أفندي، كما أن الخضاب لا يعيد الشباب، والصبية السفارادية السمراء، على غنجها، ليست العربية. ولو نبت الحنين على الشجر فاكهة لكان اليوسف أفندي. ولو كان للندم على ما سلف من طيش مذاق لكان مذاق اليوسف أفندي الأقرب إلى مذاقه. ولكن الندم، كما السيف المسلول، يلمع ويجرح ويبقى في الصدر لا يبرح.

وفيما كنت غارقًا في هذه الأحاسيس، أو في أشباهها من أحاسيس الاختناق وقد اشتدّت عليّ آلام الحموضة في المعدة، أحصيت عدد ما أمامي، في الصف الأيسر، من سيّارات متوقِّفة أمام شارة المرور الضوئية، وموقع سيارتي في الصف، فإذا بموقعها السادس، أي خمس سيارات أمامها حتى شارة المرور الضوئية.

فاستعذت بالله، سبحانه وتعالى، من شرّ تجاوزي رقم (٥). فإن هذا الرقم – الخامس – هو الرقم الذي اخترته، كلما وقفت سيارتي أمام شارة مرور ضوئية، نطاقًا يبشرني بأن يومي، إذا لم أتجاوزه، سوف يمر بسلام. فإذا تجاوزت هذا الرقم تطيّرت، وركبتني الهموم من شرّ الشيطان الرجيم.

استعذت بربي من الشيطان الرجيم فإذا به، أي الشيطان الرجيم، يركبني. فأدركني سرور شمشون الجبار حين انتبه إلى قدرته على الانتقام حتى في ساعة العجز المطبق. فصاح: «عليّ وعلى أعدائي، يا ربّ». صرخت، في سرّي: ناموا فلماذا أُوقظهم؟ قطعت الكهرباء عن محرِّك السيارة وقعدت لا أنتظر بل أقول: لينتظرني الآخرون. وأخذت أُبصبص في دخيلتي مختبئًا فيها اختباء العفريت في الإبريق.

وحكاية العفريت في الإبريق أن أبليس اللعين قرر أن يذلّ ويبهدل شيخًا ورعًا تقيًا وعالمًا رصينًا رزينًا، أميرًا مهابًا في قومه، ومسموع الكلمة. وكانت العرب تأتيه في مضافته ليقضي بينها. فأدخل إبليس اللعين نفسه في إبريق ماء فخّاري كان الشيخ قد وضعه على مصطبة مرتفعة لشأنه ولضيوفه. وتلبّس إبليس اللعين رأس حصان صغير، وأخذ يطلّ به من فوهة الإبريق كلّما همّ الشيخ أن يقضي بين النّاس. فذهل الشيخ وصاح: حصان في الإبريق. ولم يظهر إبليس اللعين، في الإبريق، إلا للشيخ المسكين. فظنوا بعقله الخرف أو أنه أُصيب بلوثة. فأخذوه إلى طبيبهم حيث أقام في كنفه شهرًا أو شهرين حتى تعافى، وقال إنه لم يعدْ يرى الحصان في الإبريق. فعاد إلى بيته وهيبته ومضافته، أميرًا وقاضيًا في قومه. فعاد رأس الحصان الصغير يطلّ عليه من فوهة الإبريق. ولكنّه

أمسك، هذه المرّة، عن الصياح حتى انفضّ عقد الجمع. فلما خلا إلى نفسه نادى على المختبئ في الإبريق قال: «شايفك. شايفك».

أجرت الشرطة، في حينه، تحقيقًا من ذلك الصنف الذي يسمُّونه «متكاملاً». ومن أُصوله أنها لا تترك عابر سبيل، في نطاق دائرة مركزها موقع الحادث (تقاطع شارعي «هحالوتس» و«الأنبياء») ونصف قطرها مسافة ما بين المركز والميناء، أو ما بين المركز و«الكرمل الفرنسي»، إلاّ واشتبهت بأنه عربي. ولا تترك مشتبهًا إلاّ وأشبعته تحقيقًا. ولا تترك مضروبًا إلاّ بعد أن تبلغ الصحافة بأنه «اعترف». ولا تترك الصحافة معترفًا إلاّ بعد أن يعلن رئيس أركان سابق بأنّه «فعلها»، وأنه فعلها ليثبت جدارته بعضوية حركة سرية معادية لحقّ إسرائيل في الحركة. ولا يتركه رئيس الأركان السابق إلاّ بعد أن يعلن نائب رئيس كنيست أنه «فعلها» لأنه لا ساميّ، ولذلك سوف يفقأ عينيه الاثنتين. فإذا كان أعور فالعين السليمة. فإذا كان ضريرًا فذلك أكبر برهان على أن اللاسامية قد نخرت لحمه وعظمه، فآثر العمى على رؤية دولة اليهود.

ولا أعتقد أن زمرة ذوي الأعصاب الحديدية، التي أبت على الناس حق الغضب إلا بعد تأليف لجان الدّرس والفحص

والمسح، ستتّهمني بالمبالغة أو بالتهريج فيما أوردته عن أُصول «التحقيق المتكامل». فقد يكون ترامى إلى مسامعهم، على الرّغم من أعصابهم الحديدية ما فوق الطبيعة، ما ترامى إلى مسامعنا وإلى أنظارنا من بعض الظنّ بالدوافع التي تدفع العرب إلى التكاثر الطبيعي المستكثر عليهم، حتى أصبحنا نرى أصحاب الظنّ يراقبوننا من خلف الشبابيك، يسترقون علينا السمع والنظر ويحصون علينا كل نأمة، ويحسبوننا لا ننام مع نسائنا إلا بقرار يأتي من «أبو عمار»، هذا إذا كان النائم منّا مرموقًا. وإلاّ، فعلى الأقل، من «أبو جهاد». وإنها، في الحالتين، لثورة حتى النصر. أما إذا كان الواحد منّا شيوعيًا فالقرار مسكوبي، والهتاف «الأُممية». فكيف لا يظنون الظنون بالعور وبالعميان منّا؟

وأنشأت الشرطة، لضمان تحقيق هذا «التحقيق المتكامل»، هيئة تحقيق عليا، ضمّت بين دهاليزها مندوبًا عن قيادة الشرطة العامة، ومسؤولاً كبيرًا في «حرس الحدود»، وكبيرًا آخر مندوبًا عن «خدمات الأمن»، ومتصرف لواء، ومنسّق عمليات، وضابطًا كبيرًا في هيئة الأركان العامّة، ومبعوث المستشار لشؤون «الأقليات»، وپروفيسورًا آخر يفهم «العقلية العربية». وضُمّ إلى هيئة التّحقيق العليا، هذه، پروفيسور أمريكي من العاملين السّريّين في مركز أبحاث الفضاءِ الأمريكي السري

في « كيپ كاناڤيرال » . وذلك حين تفتّق التحقيق، أول ما تفتّق، عن خيط امتد نحو الفضاء الخارجي، واحتمال أن يكون مخلوق فضائي هبط، فجأة، على شارع « هحالوتس » .

وقيل، فيما بعد، إنه أوّل من انتبه إلى استحالة وقوع حادث الصحن الطائر والسيف المسلول، تحته، وهبوط لابس « الشنطة »، ممّا كان يرتديه جيراننا العرب في طبريا، عليه. قال : لو كان العرب اهتدوا إلى هذه الأسرار لتبرّعوا بها وأعربوا عنها لنا إعرابًا عربيًا مبينًا، فإن العربي من الإعراب. ولا يختلف في ذلك الأعراب منهم والحضر. وسُمُّوا هكذا لأنهم، دومًا، حاضرو اللسان بالجواب، مسؤولين أو متبرِّعين. أسرارهم في قلوبهم وقلوبهم على ألسنتهم، ولا يحسنون الظن إلاّ بالأجنبي.

فلما انتهى الخيط عند المرأة الحيفاوية ذات الأصل الطبراني – من طبرية لا من طبرستان – ذهب إلى طبريا واستحمّ في بحيرتها عاريًا. فلما عاد إلى الشاطئ يرتجف من البرد وجد ثيابه وسيّارته مسروقة. فنقلته الشرطة، وهو على هذه الحال، إلى مركزها في المدينة، وشرعت، للتوِّ، في البحث عن سيارته وأثوابه في القرى العربية المجاورة، مؤكّدة أن الحادث أمني. فلمّا لم يقعوا على أي أثر لها، ولما أعرب عن رغبته في أن يبحثوا، أيضًا، بين سكان طبريا اليهود، أجابوه : ولكن

المتّهمين العرب اعترفوا. وانتخب، بحقّ ما قدَّمه لإسرائيل من هذه الأيادي، عضواً في مجلس النُّواب الأمريكي، عاد، بعدها، إلى إسرائيل مهاجراً، ثم مديراً لمعهد أبحاث الذرّة في ديمونا، ثم وزيراً للخارجية. أمّا وقد مضى العديد من السنين على هذه الترقيات السريعة فلم يعد واضحًا، الآن، في أي من البلدين جرى تعيينه وزيراً للخارجية: في إسرائيل أم في الولايات المتحدة الأمريكية. غير أن باحثًا إسرائيليًا مرموقًا أشار، في مقالة له في إحدى الصحف فيما بعد، إلى أن رئيس الوزراء السابق، مناحيم بيغن، كان يعني أفضال إسرائيل على هذا البروفيسور الأمريكي، وأنه كان من الممكن – لو أرادوا – اغتصابه فضلاً عمّا سرقوه من أثوابه وركابه، فلم يفعلوا تفضُّلاً عليه، فيما عناه من الخدمات الجلَّى، بالمال وبالبنين وبالحرمات وبالأرحام، التي قدّمتها إسرائيل منذ قيامها، وحتّى قبل قيامها، للولايات المتّحدة الأمريكية، ولرسالتها الحضارية العالمية، مقابل بضعة من حديد ومن ذخيرة لهذا الحديد الذي يدبّ على الأرض، أو يسبح في البحر، أو يطير في الهواء، ومنه سيارة البروفيسور وثيابه الداخلية، ونعومة بشرته المتشمِّسة من غير سوء.

كانت بداية الأمر ظُهر أحد أيام الربيع، في مستهل السبعينات. وكنت مسافراً، بسيارتي، من الناصرة إلى عملي

في حيفا. واخترت، كعادتي، «طريق الهدار» أو «حيفا الفوقا». فلم أكن أختار طريق «حيفا التحتا»، المكتظة بالسيارات في النهار، إلاّ في أيام السبت، حين يتركوننا نسرح ونمرح فنقع فرائس سهلة، سارحة مارحة، لكمائن شرطة المرور التي لا تشاء إلاّ أن تكمن لنا في السبوت.

انتهجت، إذًا، طريق «حيفا الفوقا». وذلك بعد أن عبرنا «جسر شِلْ»، الذي أصبح «جسر پاز» (والبترول واحد)، من تحته. فشارع «هچيبوريم» - يعني «الأبطال» الذين «طردوا» عرب وادي روشميا من بيوتهم وأكواخهم. فجسر روشميا (من فوقه). ثم شارع «هحالوتس».

وهو شارع شقّه المستوطنون اليهود الأوائل في حيفا، وهو من أوائل حاراتهم على سفح جبل الكرمل. وظلّت الغالبية من أبنيته وحوانيته على حالها منذ «أيام العرب» - ويعنون، بها، أيام الانتداب البريطاني عليها - سوى محطّة بنزين وتوسيع دكاكين، واختفاء كشك صديقي اليهودي الشاب، وكلنا كان شابًا في «أيام العرب»، الذي كان يقف معي أمام باب كشكه، ويراقب المارّين والمارّات، ثم يتنهَّد ويقول: «آخ، يا خبيبي، من يتزوج كل هذه»؟

سمّوا هذا الشارع باسم «هحالوتس». ومعناه «الطليعي». فلا يجوز لنا، تاريخيًا، ترجمته إلى اللغة العربية كما فعل

اخواننا اليهود بالعديد من الأسماء العربية العريقة في هذه المدينة، أو بدّلوها تبديلاً، حتى أصبح شارع الناصرة شارع «إسرائيل بار يهودا»، وأصبح منبعه – ميدان الملك فيصل – أمام محطة سكة حديد الحجاز – «شارع خطيبات جولاني»، وهو خط عربي ركيك يقصدون به الاسم العبري «حطيڤات جولاني»، أي فرقة «الصاعقة» العبرية الشهيرة باسم قائدها الأول، جولاني. وكنت، قبل إلمامي بهذه العلوم العسكرية، أعتقد أن جولاني هذا هو دون جوان عبري له عشيقات يُسَمَّيْنَ، احتشامًا، «خطيبات». وهذا التبديل هو تبديل سخيف. ويثير الضحك من أي مصدر جاء. فقد أثار ضحكنا، مثلاً، حين جاء من فم طالب ليبي كان يتلقّى العلم في جامعة ميلانو في إيطاليا. سألني، حين انتهيت من إلقاء محاضرة عليهم: «ما هو موقفكم من عملية تل الربيع؟». فضحك الطلاب الفلسطينيون، جميعًا، ضحكًا مجلجلاً. فلمّا استوضحت الأمر قيل: ترجم أخونا «تل أبيب» إلى العربية. أما في إسرائيل فقد تواضعوا على تسمية تلك العملية باسم «عملية الشاطئ» لا «عملية تل أبيب»، إذ انتهت، باختلاط الحابل بالنابل، واختلاط رصاص الشرطة الإسرائيلية بدماء ركاب الباص، أمام «كانتري كلوب»، على بعد كيلومترين اثنين من قلب الدولة، تل أبيب. ولا يختلف

مؤرخو حيفا، من أُخواننا اليهود، عن هذا الطالب الليبي في النجابة المكتسبة، سوى أنه لا يستطيع سوى الترجمة، قولاً. أما هم فيترجمونها عملاً أيضًا.

أما الذي وقعت فيه أُختي المغتربة، فمختلف جدًا. كان ذلك حين التقيتها لأَول مرّة، بعد الغربة الأُولى، في العام ١٩٦٦، في مدينة لارنكا الساحلية في جزيرة قبرص. فلما انتهينا من تناول الطعام بادرتني، تحبُّبًا، بالقول: «تلاطما». فلم أفهم. قالت: أليست «تلاطما» كلمة عبرية تعني، بالعربية، شكرًا جزيلاً؟ فمن علَّمها ذلك؟ قالت: أُختك غير المغتربة. فلي أُخت غير مغتربة. وهو أمر نادر بين الفلسطينيين. ففي أوائل الخمسينات سافرت أُختي، غير المغتربة، إلى عمان في عيد فالتقتها. فلمّا تناولا الطعام شكرتها، دلعًا، بكلمة عبرية. قلت: الصحيح هو «توداه رباه». فأجابتني أُختي المغتربة: فما الفارق ما بين تضاربا وتلاطما؟ قلت: الصحيح، يا أُختي، أنه لا يوجد فارق.

أمّا إذا أبقوا على أسمائنا القديمة، لم يبدلوها أو يجدعوا أُنوفها، فلأمر ما لم يفعلها قصير. ومثال على ذلك اسم «شارع صهيون»، الذي يهبط من «شارع الخوري» إلى «حيفا التحتا» (شارع اللنبي)، فهو من أسمائنا العربية القديمة، نسبة إلى عائلة حيفاوية عربية عريقة. لم يبدِّلوه لا احترامًا لتساؤل

شكسبير العارف، في «روميو وجولييت»، «ماذا يهم الاسم؟!» بل لأنه يهمّ ويهمّ. بدّلوا اسم «شارع الجبل» باسم «الأمم المتحدة». فلما أمسكت بهم شتموا أباها قائلين: نسمّيه «شارع الصهيونية» دون أن يفطنوا إلى وجود أطلال بيت عائلة صهيون، العربية الحيفاوية العريقة، في ذلك الشارع العريق. وخلّدوا الاسم الجديد بأن نقشوه مرقّمًا، من واحد إلى اثنين وثلاثين، على صناديق القمامة في «شارع الصهيونية». فنقرأ على صندوق قمامة: «الصهيونية – ١٣»، أو على صندوق قمامة آخر «الصهيونية – ٢٣». وهناك صندوق قمامة، في هذا الشارع، اسمه «الصهيونية – ١». وهو رقم سيارة وزير الشرطة أيضًا. وقد شاهدت هذه العجيبة، بأُم عيني، كما شاهدتُ، بأُم عيني، عجيبة أُخرى من عجائبهم، وهو علم دولة إسرائيل يرفرف، بجلال وهيبة ونقاء، فوق سجن نابلس.

يغلب ضجيج السيارات، الآن، على أنين جبل الكرمل وهو يحمل، على ظهره، أثقال الحضارة. فأين يلتقي، الآن، صبْية وصبايا حيفا؟ «وادي العشاق» أصبح زفتًا وقطرانًا. و«البانوراما» سُقفت. ودغلة أشجار الصنوبر الوحيدة كأنها الواحة، المطلّة على جنائن البهائيين، أصبحت شققًا سقيمة للإيجار. عمارة سويدان، الآيلة إلى السقوط منذ ما قبل قيام

الدولة، لم تسقط ولكنها طمرت في كومة من صناديق السكن الأسمنتية. مدرسة «سانت لوكس»، المطلة على البحر من سفح الكرمل الغربي، أصبحت مخازن عسكرية. وظل كوهين أڤيدوف، الذي يفقأ العيون، يلاحق من يتنزّه، من الصِّبْية والصبايا العرب، في أحراش عسفيا والدالية.

ولكننا، إذا أصخنا السمع، نستطيع أن نسمع قهقهة جبل الكرمل، حفيفًا هازئًا بهذه الخربشة المثيرة للسخرية. لقد حوّلوا «ساحة الخمرة» إلى «ساحة باريس»، ظنًا منهم بأن الاسم العريق – نسبة إلى عائلة الخمرة العريقة – يعود إلى المحرَّمات. فأيّنا المخمور، أيها المتجهِّمون خِلْقة وخُلُقًا: المبتسم من بطن أُمه، خِلْقة وخُلُقًا، لهذه النعمة، أم الجاهل بمحتدنا المخمَّر! لم يستطيعوا، لو يعلمون، الهروب منّا، فمنذ «ساحة الحناطير»، في الزّمان الأول، كان آباؤنا «العربنجية» يتندّرون على قبعات السائحات الأجنبيات، الفاقعة كأُصص زهر اصطناعي مغبر: إنها قبّعات «پاريسية»، وكانوا يُبلون بهنّ بلاءً حِسنًا. وعنهم أخذ هذه المهنة السياحية الآن، حمّارة الناصرة. أي منذ «أيام اليهود».

قلت: كانت سيارتي، وهي السادسة في تعداد السيارات التي توقّفت في الصف الأيسر أمام شارة المرور الحمراء، في انتظار الصفراء فالخضراء. وكان هناك صفّ، إلى يميني، مؤلّف

من سيارتي باص وما وراء وراءَهما من سيّارات. ولا أذكر عدد السيارات التي أُوقفت وراء سيارتي، صفًا بديلاً. فقد كنت مهتمًا بما ينتظرني من شرٍّ هذا اليوم الذي تجاوزت فيه، بترتيب سيارتي، إطار تفاؤلي.

وظهر، من التحقيق فيما بعد، أن الضوء الأحمر أخلى عينه للضوء الأصفر، ثم للأخضر، عدّة مرّات، دون أن ننتبه، نحن جميعًا - من أمامي ومن ورائي - إلى وقوع هذا الأمر. وأعجب ما في الأمر أن هذا الشارع، الذي يتميَّز بنفاد صبر السوّاقين فيه، وبخاصّة في ساعات الزّحمة، ظلّ هذه المرّة صامتًا صمت كنيسة لاتينية في أثناء الصلوات السرية. كانوا، في العادة، يملأون الدنيا ضجيجًا بأبواق سياراتهم، وسبًّا وشتمًا بألسنتهم الذَّرِبَة: برج بابل إلاّ حين تشتد الأزمة فتتغلَّب لغة الضاد على سواها من اللغات الحيّة. ناهيك عن ضجيج باعة الفلافل و«الشاورما» في حوانيتهم المزركشة، والمتواجهة من هذا الجانب ومن ذاك الجانب من الشارع في مصبِّه حمَّامًا مقطوع الماء، أو خناقة غير منقطعة، ليل نهار. ويا لمصيبة سائق سيارة إن تلكّأ في تسيير سيارته لدى ظهور الضوء الأخضر، لحظة واحدة، حتى لو كانت لحظة وهمية، فيعلو نفير السيارات وشتائم السوّاقين. و«هل أنت نائم في البيت مع زوجتك؟». ويا «طور». ويتساوى اليهود والعرب، في الزحمة، في النطق

باسم الحمار نطقًا عربيًا فصيحًا – « حمور » . أُولئك توكيدًا بهُويّتهم وهؤلاء إخفاء لها . ولولا خوف مؤسسي الدولة – كما أرى – من انكشاف علاقتهم القديمة بالساقاك ، لما تردّد آباء المدينة في تسمية هذا الشارع باسم « سوق فارسي » ، البازار . إلاّ في تلك الزحمة ، فإن « شيئًا ما » استرعى ، في وقت واحد ، انتباه السواقين ، والرُّكاب ، والمشاة ، وباعة الفلافل ، و« الشاورما » ، وآكليها ، وأخذهم أخذًا شديدًا فسكنوا وصمتوا ، لا حركة ولا نأمة .

فيما تتابع ظهور الضوء الأخضر ، إيذانًا بالمرور ، والحركة ، وبالسباب وبالشتائم ، حوالي نصف ساعة ، دون أية حركة ، أو أي احتجاج على انعدامها ، حتى بلغ صفّ السيارات الواقفة ، أو المنضمة إلى السيارات الواقفة ، جسر روشميا . ثم امتدّ إلى ما وراء شارة المرور القائمة على تقاطع « حيفا الفوقا » و« حيفا التحتا » – شارع « هچيبوريم » (أي شارع « الأبطال » الذي ألقوا ، في بحر حيفا – عكا ، بأهالي وادي روشميا ووادي الصليب) وشارع « إسرائيل بار يهودا » (شارع الناصرة) ، فإلى ما تحت « جسر پاز » (جسر شِلْ) ، وإلى ما وراء ذلك ، فتجلَّط السير وانقطع عبر « حيفا التحتا » أيضًا . فخرج ضباط البوليس ، من مركزهم المحاذي لمخازن « دوبك » (قرمان ، ديك وسلطي سابقًا) ، إلى شارع « إسرائيل بار يهودا »

ليتفرّجوا على هذا الازدحام العجيب، وقد أُسقط في أيديهم فلا تسجيل مخالفات، ولا يؤتي هرجهم ومرجهم إلاّ ضِغْثًا على إبّالة.

ولم يعد ينفع «خطيبات چولاني» أنهم اقتلعوا نصب الملك فيصل من مركزه في وسط الميدان، وألقوا به بين مقابر آل مراد الرخامية، داخل السياج الحديدي المدبّب لصق محطة السكة الحديد القديمة. فقد عجّت «حيفا التحتا»، جميعًا، بالسيارات المنجلطة. «شارع الملوك»، الذي أصبح «شارع الاستقلال»، ودخله بحّارة السفن الأجنبية فأفسدوه، في النهار وفي الليل، ارتجّ لسانه وتلعثم وتبلبل وأخذ يغمغم أن ناقلات البترول، إذا دخلت جادّة أفسدتها. مات الملك. شارع «النبي يونا»، يونس (الكرمليت سابقًا)، ابتلعه هذا الحوت. قطارات السكة الحديد أُصيبت، هي أيضًا، بهذه السكتة القلبية. العمل في الميناء توقّف. وأخذت السفن، التي كانت تُنزل حمولتها في الميناء، تعول وتضج وتصفر، فيما كان حمّالو الميناء يتراكضون نحو «شارع الاستقلال» ليؤاجروا في إلقاء القبض على مخرِّبين قد يكونون هبطوا، في طائرات شراعية، كما قيل، وسط ذلك الشارع، لعلهم يظهرون في التلفزيون وهم يحمون استقلال الدولة.

أخذت جلطة السيارات تمتد وتمتد في شرايين المدينة وفي

تلك الساعة بالضبط، التي كانت المدينة فيها تغلي بالحركة، كالمرجل أو كجحيم دانتي: ضوضاء، ضوضاء. فمن منادٍ ومن مجيب ومن تصهال خيل (سيارات) خلال ذاك رُغاء (مع الغازات السامّة المنفلتة من الأنابيب العادمة في مؤخَّرات مئات السيارات). فلا ضوضاء ولا غازات سامّة بل أُناس واقفون مشدوهون وفي عيونهم لحظة ترقُّب أشبه بنظرات جمهور يقف أمام شارة حمراء في انتظار شارة المرور الخضراء ليعاود الركض، وكأن سياطًا من داخله تسلخ ظهوره كلما توقَّف. اضرب، يا «عربنجي»، اضرب! ماذا دهى المدينة؟ وناس يركضون نحو «شيء ما» قد يكون حدث، لعلهم، إن شاركوا فيه - ولو بالمشاهدة - يتحرّرون من قيود «الروتين» وعلى رأسه هذا السلخ الداخلي: إنني أركض يا «عربنجي»، هذه المرّة بمحض اختياري لا مدفوعًا بسياطك، بل لَعلّي أتخلّص منها إلى الأبد. إلى الأبد! إلى الأبد!

وناس متحيِّرون بين الواقفين والراكضين. وبين الراكضين شمالاً والراكضين جنوبًا. يركضون في هذا الاتجاه فيندمون فيعودون أدراجهم راكضين في الاتجاه المغاير. فيندمون. الدنيا «شارع الاستقلال». وقد توقَّف. فماذا يفعلون؟ بضعة قروين غارقون في هذا السُّبات يحاولون استراق الخطو نحو وادي النسناس خوفًا من الضربة البوليسية العشواء، اعتقالاً أو

انتقامًا. سائق تاكسي من دالية الكرمل يلعن الساعة التي قرَّر فيها أن يأخذ هذه «الكروة». سوّاقو باصات الناصرة وتاكسياتها تجمَّعوا، دون سابق اتفاق، في مطعم «العبد». «العبد» أغلق، دون سابق اتفاق، أبواب مطعمه. وأخذوا يتلصَّصون على ما يجري في الخارج عبر النوافذ التي أسدلوا ستائرها. أما وادي النسناس فلم يعلم. ولذلك لم يعلم العاملون في جريدتنا وفي مطبعتها.

أمّا الدولة فلم تعد ولم تستيقظ، كما قيل، إلاّ حين بلغت الجلطة «الكانتري كلوب» على مدخل تل أبيب من طريق حيفا. وقع هذا الأمر، أمام «الكانتري كلوب»، قبل «عملية تل الربيع» بخمس سنين أو أربع.

ولكنه وقع في الربيع.

ولم نستيقظ، نحن الواقفين بسياراتنا في المكان الطليعي، في شارع «الطليعة» («هحالوتس») إلاّ حين بدأت حوّامات الجيش الإسرائيلي تُنَزِّل فوق رؤوسنا جنود البراشوت.

تركت سيارتي وهربت إلى مكان عملي، فتعقّب المحققون آثاري، حتى المكتب، في اليوم الثالث. ولم يتمّ إخلاء الشوارع من السيارات المهجورة إلاّ في اليوم الخامس. ولم يبدأوا بالتحقيق، رسميًا، إلاّ في بداية الأُسبوع الثاني.

حاول المحقِّقون، في الأسابيع الأُولى، التستُّر على أمرهم.

واكتفوا بنشر البيانات « الغامضة » عن أن التّحقيق « يتشعَّب »، وعن « ملاحقة عدّة خيوط »، وعن « اعتقالات واعترافات » ستقود إلى « اعتقالات جديدة » . وأخذت أُراجع تصرُّفاتي . وقد يكون غيري من « المتلبِّسين » فعل فعلي، وبخاصّة حين جاء في بيانات الشرطة أن الدلائل تتراكم لتشير، بأصابع الاتهام، إلى « مخرِّبين » وإلى « دوافع أمنية » . فما من عربي، في هذه الدولة، إلاّ ويظن الظنون بنفسه : أن يكونوا يعتبرونه، بما في دخيلة نفسه، « مخرِّبًا »، أو أن يكون ما يشعر به من قهر مدعاة إلى اعتباره، إذا ترامى إلى أسماعهم أو بالحدس حدسًا، وهم سيد الحادسين، « مخرِّبًا » أو مرشحًا لأن يكون « مخرِّبًا » . أمّا « الدوافع الأمنية » فإنه يقف أمامها، من حيث جهله المطبق بها وبحدودها، ومتى تفيض، ومتى تنحسر، موقف الاعتراف المسبق بالجريمة أو موقف « عروس النيل »، في الزمان الأول : الاستسلام التامّ لهذا الإيمان والموت الزؤام المبرَّر من قبل الضحية أيضًا، إذ لا تتصور إمكانية الكفر والإلحاد بالنيل وبأمن إسرائيل . ومن هنا، على ما أرى، جاءت الشتيمة المصرية العذبة –« چاتك نيلة » التي أرى أن نترجمها إلى العربية الفلسطينية الإسرائيلية (وفي « المناطق ») : « جاتك دافعة أمنية » .

كنّا، في الجريدة، في بداية عملية « التحديث » أو

« العصرنة » - كما سمَّينا الأمر في هيئة التحرير. وكنّا أنجزنا، في « العصرنة »، تقدُّمًا عينيًا محمودًا من حيث ساعات العمل اليومي في الجريدة وأن لا نكتفي بالعمل حتى الظهر بل انتقلنا إلى العمل حتى ساعات العصر. فمن العصر تبدأ العصرنة. ومن الإكثار في الحديث، في الاجتماعات الكثيرة، يبدأ التحديث، وأمرهم شورى بينهم.

فضاعت الطاسة بأُسلوب ديمقراطي ساوينا فيه بين المسؤول وبين المرؤوس، حتى أصبح المرؤوس مسؤولاً عن أخطاء المسؤول، فأمعن المسؤول في الشورى بينهم.

فتبرَّع أحد المحرِّرين الشبَّان العصريين، في اجتماع شورى عقدناه عصرًا، أن يقوم هو أيضًا بتحقيق صحفي مرادف لتحقيق الشرطة المتكامل. فابتدأ بنا وانتهى بنفسه وبأحاسيسه.

كان يأتينا، تباعًا، بتقارير دوّن فيها، تفصيلاً، مشاعره ومشاعر من التقاهم من الأصدقاء حين سمعوا عن « جلطة المواصلات » لأَوّل مرّة. أين كان الواحد منهم حين وقوع الحادث، وفي أية ساعة، بالضبط، أي في أية دقيقة من تلك الساعة. وأحيانًا كان يعيِّن الثانية. فقد كان دقيقًا دقَّة كمپيوتر. وأجرى، بهمَّته، استفتاءات واسعة النطاق في الأمر: ما هو شعورك في الوهلة الأُولى؟ وما هو شعورك في الوهلة

الثانية؟ أي على الطريقة العصرية الأمريكية التي نشاهدها أحيانًا، من على شاشة التلفزيون. ويسمّونها «الشاشة الصغيرة». وتتميّز بالدقّة العلمية التي قيل إن الشرقيين يعجزون عنها. وهذا ظلم. وقد كنت شاهدًا على ذلك.

فقد شاركت في حفل شرقي خالص، بل عربي شرقي، في شرقي القدس، لتأبين أحد رجالات فلسطين، الذي اغتالته أيدٍ آثمة في الخارج، عن عمر قضاه في الصمود والتصدّي. واختاروا قاعة عصرية، من قاعات جمعية الشبان المسيحية في شرقي القدس، لا في غربها، مضافة لحفل التأبين.

فلما انتهوا من إلقاء الكلمات دُعينا إلى قاعة أُخرى مُدَّت فيها موائد الطعام على الطريقتين الشرقية والغربية. أي التقى التوأمان على موائد الطعام. وتلك عادة ورثناها عن جود البرامكة، خصوصًا في مآتمهم - البرمكيين والبرمكيات.

وكنت أحسب أننا سنمضي الوقت، بين ازدراد اللُّقمة واللُّقمة، في تعداد مناقب الفقيد، وفي استشفاف الأسباب عمّا أصابه، وهُويّة المجرمين ومن أرسلهم، وعن مصير من كان يعولهم من والدين وزوجة وأولاد، فخاب ظنّي. وإذا بالمؤبِّنين والمؤبِّنات ينشغلون بأنفسهم وبمشاعرهم: أين كنت حين جاءَك خبر الخطب؟ أمَّا أنا فكنت في لندن، وقد عدت لِتَوّي من دكاكين «ماركس» و«سبنسر» ببرنيطة على الموضة. وقد

أعجبت زوجي. وسعرها، على أناقتها، رخيص.

– أما أنا فكنت في پاريس. كنت أصعد الدرجات إلى «سويتنا» في الفندق حين سمعت اسم المرحوم يتردّد، بالفرنسية يا أُختي، من جهاز الراديو. فساورتني الظنون. قلبي أخبرني.

– أُوه! لماذا لم تركبي «الأسانسير»؟

– لم أعِ ما كنت أفعل. وربما كان معطلاً.

– أما أنا فكنت في «الأسانسير». توقّف في الطابق الرابع. «سويتنا» في الطابق السادس. دخل «أبو الهرم» إلى «الأسانسير» متجهِّمًا. كان صاعدًا ليخبر زوجي. جاء إلينا بالمرسيدس المسلّح وقد تكاثرت في وجهه أمارات الصمود. فانخلع ضلعي. حتى الآن أشعر بالألم هنا. جسّي. جسّي. آه أتوجَّع! مسكين زوجي. حتى اليوم لا يستطيع الخروج من هول الصدمة. ها هو. شوشو. أتذكر؟

ويتذكّر شوشو أن «أبو الهرم» أبى أن يخبره بالمصاب الأليم وهما في الفندق. بل حمله في سيارته «المرسيدس المسلّح» إلى مكتب المنظمة. ولكن شوشو أحسّ بالخطب قبل إبلاغه به رسميًا. وهو لا يحب الحديث عن الأمر خوفًا من عودة الآلام التي سبَّبتها له الصدمة. لقد انخفض وزنه منذ ذلك الوقت. وهذا يكفي. إن طريقنا، نحن الفلسطينيين، طويل

وشاقّ، وعلينا أن ندفع الثمن. أخ، يا بطني.

ولكن زميلنا، الصحفي الشاب والعصري، والحقّ يُقال، لم يكتف بهذه الدقَّة في تفصيل المشاعر. فقد استطاع، بالإضافة إلى ذلك، أن يبلغنا بما ارتكبته الشرطة المحقِّقة من تحقيق في أثناء هذا التَّحقيق.

ونشرنا، في جريدتنا، أخبارًا وتعليقات عن بعض هذه المرتكبات. ونقلنا عن الصحف الأُخرى أخبار مرتكبات أُخرى. واضطرّونا إلى نشر نفي لبعض ما كنّا نشرناه. وبعضهم لم يكتف بالنفي بل قاضانا أمام القضاء. فحكم القضاء علينا بالجزاء – مبالغ باهظة اضطررنا إلى القيام بما نسمِّيه «حملات مالية» لجمعها من جيوب قرائنا، وأصدقائنا، وعلى رأسهم العمال وغيرهم من الفقراء. حتى انكتمنا جملة وتفصيلاً. فلما انكتمنا انكتمت بقية الصحف. ثم جاء «الاتفاق الإجماعي»، غير الموقَّع، على نسيان الحادث.

وكنّا أفردنا، في هذه الأثناء، ملفًا خاصًا لهذه القضية، على الطريقة الصحفية العصرية. فأكله، على الطريقة العصرية، النسيانُ. فلمّا شرعنا في إجراء «تنظيفات عامة»، استعدادًا لإصدار الجريدة يوميًا، أحضروا إليّ هذا الملف، مع غيره من «المَنْسِيّات»، لكي نقرر في مصيرها. فكان ما بين أيديكم الآن.

(٣)

الرَمزور

كانت «نقطة الانطلاق»، التي أجمع على الانطلاق منها المحققون ومستشاروهم ومحرّرو الصحف المتخصصون بشؤون الشرطة (بالإضافة إلى وكالة «عتيم»)، ظهور «شيء ما» في شارع «هحالوتس» ذي قدرة خارقة على تنويم السوّاقين، والركّاب، والمشاة، وباعة الفلافل والشاورما، وآكليها، «تنويمًا مغناطيسيًا» في نطاق مستطيل امتدّ، بعرض الشارع، من نقطة التقائه و«شارع الأنبياء» حتى نقطة التقائه و«شارع هچيبوريم» فوق جسر روشميا بعدة أمتار. فهل هو الـ«يوفو» (شيء غير مفسَّر) الذي يظهر في سماء الولايات المتحدة الأمريكية وأقطار في أمريكا اللاتينية مرتبطة بها سمائيًا؟ فإذا كان «يوفو» فهو «يوفو» من نوع آخر، «يوفو» شرقيّ. فإن «يوفو» الغرب، حين يظهر، يوقظ الناس ويخرجهم من بيوتهم وأعشاشهم وحقولهم فارعين دارعين نحو الجبال العالية، لعلّهم يلمسون «الشيء» لمس اليد. أمّا هذا «الشيء» فتأثيره، كما ظهر في شارع «هحالوتس»، مختلف جداً. فقد أخذ ألبابهم وأسكنهم فسيح الصمت وعقد ألسنتهم وَكَمَّ

أفواههم وجمَّدهم وخشَّبهم ونومهم تنويمًا حتى كأنّ على رؤوسهم الطير.

وفيما بعد تذكّر پروفيسور « مستعرب »، من أعضاء هيئة التحقيق العليا، واقعة غريبة مشابهة وقعت في « هذا الشرق » في الزمن الغابر وضمّنها الرواة كتاب « ألف ليلة وليلة ». بل عاد إليها، في ذلك الكتاب، ونسخها وأصرَّ على تصنيفها، في ملفات التحقيق، مستمسكًا على جوّ « هذا الشرق » المنوِّم. تلك كانت، كما تذكرون، حكاية مدينة النحاس التي دخلها الأمير موسى فإذا « لا حسّ فيها ولا أنيس. يصفر البوم في جهاتها ويحوم الطير في عَرَصاتها. وينعق الغراب في نواحيها وشوارعها ». لم يوقظها – قال البروفيسور « المستعرب » عضو هيئة التحقيق العليا – سوى الأمير موسى. وهو موشي، و« موشي » هو الدولة. فجوّ « هذا الشرق »، قال، منوِّم. فإذا تركنا شارعًا لباعة الفلافل والشاورما الشرقيين، من عرب ومن أشباههم اليهود – قال – أصابهم الذي أصاب هذا الشارع. هذا هو حل اللغز – قال – ولا يوقظهم إلاّ الأمير موسى، وموشي هو الدولة.

فتنطّح له عضو آخر من أعضاء هيئة التحقيق العليا، قيل إنّه شَبّ في أحضان كيبوتس ولا يزال يرنو بطرف خفيّ، وضمير مستتر جداً، إلى الحمائم في حزب « العمل »، على

الرغم من نزوله عميقًا تحت الأرض في مراتب المخابرات الأمنية العليا.

قال إن من التجنّي على «هذا الشرق»، تجنيًا قد يحمله كارهو إسرائيل على محمل العنصرية، اتهام جوّه، وحده، بقدرة السحر على التنويم. فإذا الجوّ في «ذلك الغرب» – قال بشجاعة حمامية – نوّم الحسناء الناعمة فلم تستيقظ إلاّ بقبلة طبعها الفارس الأمير على جبينها الأبيض الناصع.

أجد أنه من العبث الاسترسال في سرد هذه الوقائع التفصيلية، عمّا جرى من تحقيق فذّ ومتكامل في هيئة التحقيق العليا. من العبث، بعد مرور هذا الوقت الطويل على الحادث، أن أستعيد، هنا، الحجج الرصينة التي أوردها مندوب الأركان العامة، في هيئة التحقيق العليا، ردًّا على ضابط المخابرات الحمامي. فمع أنه ألقى حججه حجّة حجّة، وبين الحجّة والحجّة فترة استيعاب زمنية، كما لو أنه رسام مبدع ومذهل يشحط في اللوحة شحطة، ثم يبتعد عنها إعجابًا بشحطة نفسه، فالشحطة الثانية. وهكذا بين الشحطة والشحطة فترة استيعاب وإعجاب ذاتي زمنية. فمع أنه فعل ذلك وتطوّس، فإن الخطأ في المقارنة ظاهر للعيان لا يحتاج إلى أية شحطة ذهنية أو مرسمية. فلم يكن جوّ «ذلك الغرب» هو الذي نوّم الأميرة الغربية. إنما فعلت ذلك ساحرة. والمؤسف

في الأمر أن مندوب هيئة الأركان العامة، في لجنة التحقيق العامة، استغل إغفال الراوي الغربيّ لِهُويّة الساحرة لكي يتّهمنا بها وأنها عربية أو من أصل عربي، ولم تنفع فيه ملاحظة ضابط شرطة كبير، ولكنّه من أصل إنجليزي، أنها ربما تكون إرلندية.

المهمّ أن المحققين نجحوا في تعيين الفترة الزمنية، التي استمر فيها جوّ «هذا الشرق» السحري مسيطراً على شارع «هحالوتس»، فيما استمر تتابع الحدثان - الضوء الأحمر والضوء الأخضر - حتى أجزاء الثانية: ٢٤ دقيقة و٥٩ ثانية و٥٧ على ٦٠ من الثانية. لقد أصدرت لجنة التحقيق العليا بياناً خاصاً، في حينه، بهذا الإنجاز الإلكتروني الأول من نوعه منذ سقوط «البيت الأول». واعتبرته برهاناً على جدارة المحقِّقين وجِدّية التحقيق وأنهم «أمسكوا بالخيط». ويقال إن هذا الإنجاز هو الذي لفت أنظار وزير المعارف إلى ضرورة تلقين أولاد اليهود علوم الكمبيوتر بدءاً بالصفوف الابتدائية. لقد ضحكتُ في عُبِّي، حين صدر ذلك البيان المتكبِّر، على جهل هؤلاء المتمدينين الكومبيوتريين، بما حقَّقناه وحدنا - أي قبل ظهور الكمبيوتر - في تاريخنا الغابر، من منجزات حسابيّة دقيقة فاقت، في دقَّتها وتفصيلها، ما حقّقوه في هذا الزّمن وما يكونون يحلمون بتحقيقه.

فقد استطاع الرحّالة المسعودي، قبل حوالي ألف سنة، في العام الهجري «خمسة وثلاثين وثلثمائة» بالضبط، تعيين عدد السنين والأيام، حتى اليوم الأخير، الذي استغرقه خلق الأرض أو عاشه أجدادنا المعمَّرون.

وكان أبو الحسن متواضعًا في العلم وأمينًا على الحقيقة. فأورد حساباته وحسابات غيره حتى ولو كان الاختلاف بضعة أيام فحسب. فآدم، مثلاً، «توفي يوم الجمعة، لِستٍّ خَلَوْنَ من نيسان، في الساعة التي كان فيها خلقه. وكان عمره، عليه السلام، تسعِمائة سنة وثلاثين سنة» دون زيادة أو نقصان.

وأما متوشلح بن أخنوخ، الذي «عمّر البلاد والنور في جبينه وولد له أولاد، وكان البلغر والروس والصقالبة من ولده، فقد كانت حياته تسعِمائة سنة وستّين سنة. ومات في أيلول» بالضبط. وفي زمن «أهوذ من ولد أفرايم، ولخمس وثلاثين سنة خلت من أيامه، تمّ للعالم أربعة آلاف سنة. وقيل غير ذلك في التّاريخ». وقد يكون الفرق بين ما أحصاه المسعودي، من سنين على إتمام خلق العالم، وبين ما قيل غير ذلك زهيدًا ولا يزيد على بضع سنين، وشهرين، وثلاثة وعشرين يومًا، وست ساعات، أو خمس ساعات، خَلَوْنَ من ذلك اليوم، زيادة أو نقصانًا. وقد فعلها المسعودي في أماكن أُخرى التزامًا بالدقّة وبحسابات الآخرين.

والمسعودي، على ما وجدت وبحثت واستقصيت، هو أوّل من أدخل إلى عالم التأليف والنشر بدعة «جميع الحقوق محفوظة للمؤلف». فأعلن، في مقدِّمة «المروج»:

«فمن حرَّف شيئًا من معناه، أو أزال ركنًا من مبناه، أو طمس واضحة من معالمه، أو لبّس شاهدة من تراجمه، أو غيّره، أو بدّله، أو أشأنه (أفسده)، أو اختصره، أو نسبه إلى غيرنا، أو أضافه إلى سوانا، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمه وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره، ويَحار له فكره، وجعله الله مُثْلةً للعالمين، وعِبرة للمعتبرين، وآية للمتوسِّمين، وسلبه الله ما أعطاه، وحال بينه وبين ما أنعم به عليه: من قوة ومنعة، مبدع السَّموات والأرض، من أي الملل كان والآراء. إنّه على كل شيء قدير».

ولم يكتف أبو الحسن بهذا الإنذار الرهيب الذي لم يُبق ولم يذَر حتى يوم الدِّين، بل كان أيضاً، أول من عيَّن «آلية» تنفيذه إذ قال: «وقد جعلت هذا التخويف، في أول كتابي هذا وآخره، ليكون رادعًا لمن مَيَّلَهُ هَوًى أو غَلَبهُ شقاء. فليراقب الله ربه. وليحاذر منقلبه. فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة»، إلى أين؟ قال: «وإلى الله المصير».

ركب المسعودي البحار، «كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن». وأصابه فيها من الأهوال ما لم يُحْصِه كثرة. وجاب

في الآفاق ودخل الهند والسند و« بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج »، وعرّج على بلادنا فلسطين وزار « قرية يقال لها ناصرة من بلاد اللجّون ». قال : « ورأيت في هذه القرية كنيسة تعظمها النصارى. وفيها توابيت من حجارة فيها عظام الموتى يسيل منها زيت ثخين كالرُّب تتبرَّك به النّصارى ».

ولكنه اختار، طريقًا إلى « قرية الناصرة »، وادي « عارا » – وذكرها بهذا الاسم لا « عاره » كما نكتبها الآن – وعرعرة من عارا كما أن هذه العصا من تلك العُصية – فتجاوز، لسوء طالعنا، طريق الساحل وحيفا. ولو اختار هذا الطريق لكان خلّف لنا وصفًا دقيقًا لِمَا كان موجودًا، في حيفا، في زمنه من عجائب و« أحابيش صغار » كانت أغنتنا، اليوم، عن أعاجيب بار يهودا، وهرتسل، وشبتاي ليفي، وحسن شكري، والصهيونية، وكُفر الوزير ألون بوجودنا، وكانوا اضطُرُّوا إلى حفظه مستمسكًا قيِّمًا من مستمسكات هيئة التَّحقيق العليا في هذه القضية العجيبة.

فقد كان، رحمه الله، شديد الملاحظة، مهتمًا بالتفاصيل، دقيقًا في وصف العمران والخراب، وتحديد الأعمار والعقاب، وملاحقة المنابت والمصائر. ولولا غلبة خوفي من عاقبة إنذاره الرهيب على خوفي من غضب حكومة الوحدة القومية، بين

الأشكناز والسفراديم، لأخفيتُ عنكم أفصح مثل على دقّته وأمانته في ملاحقة المصائر وتعيين المهابط والمنازل. ولكن أمري للّه. فإن المسعودي، في «المروج»، جمع «ما ذهب إليه الجمهور من أهل الفقه والآثار»، وحقّقه فاستنبط، توكيدًا، أن «الله أهبط آدم بسرنديب، وحواء بجُدّه، وإبليس ببيسان». ولا يستطيع داڤيد ليڤي اتّهامه بالإشكنازية. فهو، رحمه الله، «موروكي ابن موروكي». أي مغربي ابن مغربي.

ولا تعني هذه الحقيقة، بحال، أن إبليس استقر ببيسان، كما أنها لا تعني، بحال، أن ظهور إبليس، في شارع «هحالوتس»، هو السبب في «جلطة المواصلات» هناك. فإبليس لا يظهر، لا يظهر لي على الأقل، إلاّ في الليل. أمّا «جلطة المواصلات» فقد وقعت، كما تعلمون، في عزّ الظهيرة. أي فيما كانت الشمس في كبد السماء.

وإبليس يظهر لي، في الليل فقط، في شكل عيون شارات المرور الضوئية، قبيل منتصف الليل وأنا عائد بسيارتي إلى الناصرة عبر «حيفا التحتا» - شارع «إسرائيل بار يهودا» في التقائه وشارع «هچيبوريم»، زاوية حادة يصبح ضلعاها شارعًا واحدًا يمرُّ من تحت جسر شِلْ (پاز، الآن) متّجهًا نحو الناصرة أو، يسارًا، نحو عكا. في نقطة الالتقاء، هذه، نُصبت عدة عيون ومراكز لشارات المرور الضوئية. فإذا حملقت بي العيون

الحمراء رمقتني بطرفها عيون خضراء، إلى يميني، تُغريني بأن أتقدم. فإذا العيون الحمراء، أمامي، تصفرّ. فتحمر العيون الخضراء إلى يميني. فالأخضر أمامي والأحمر إلى يميني، فيما ينتظرني، على بعد عشرين مترًا، إبليس آخر تحت الجسر أرى عيونه تستشيط في وجهي غضبًا أحمر أو أصفر كما لون النار. فلا أتحرَّك إلاّ جماعة، أي حين تتحرّك سيارات إلى يميني، حتى ولو نحو الهلاك. فإن «الموت، مع الناس، نعاس» و«حط راسك بين الرووس وقل: يا قطاع الرووس».

وشارات المرور الضوئية يسمُّونها، في بلادنا، «الرَمزور». و«رَمزور» مزج كلمتين عبريّتين، مع نحتهما، وهما «رَم» ومعناها: العالي، المرتفع، الصارخ، و«زركور»، ومعناها الكشّاف الضوئي. وعلى شاكلتها جاءت كلمة «رَم كول» العبرية. وترجمتها «الصوت العالي»، وهي الميكروفون. وأُخواننا اليهود مولعون بهذا المزج والتصحيف والاختصار، ويعتبرونه آية في التحضُّر، وهو من عجائبهم.

فتكثر، في أسماء شركاتهم، بدايات ونهايات «أم». وهي اجتزاء كلمة «أمريكا». فهناك، مثلاً، شركة «أم پال». ومعناها «أمريكا – پالستاين». و «أَم كور». وهي شركة تصنع البرّادات الكهربائية. فتركوا الرمز – «كور» مبهمًا. فإما أن يكون من «كورپوريشين»، وهو «شركة»، وإما أن

يكون من « كور » العبرية، وهو البرد. فيصبح اسم الشركة « الأمريكي البارد » . وهو جائز اجتزاء كما قيل لي . والله أعلم.

ومما أذكره من أمثلة على « أم » الآخرة، « اسرام » . ومعناها « إسرائيل – أمريكا » .

وحين عادوا إلى مصر، في إِثر السادات، ركبتهم الظُّنون في معنى الكلمة الشعبية اللطيفة التي يتداولها المصريون، وهي « أُمّال » ، فظنّوا أنها اسم شركة أمريكية مالاوية، فطالبوا بتطبيع العلاقات معها، فأجابهم سائق تاكسي في القاهرة « أُمّال » .

ويشتد التصحيف والاختصار والمزج حين يطلقون الأسماء الشتّى على حركاتهم وحركات سواهم. فإن « مپاي » هو اجتماع الأحرف الأُولى من « مفليچت پوعالي يسرائيل » (حزب عمال إسرائيل) . و « مفدال » هو « مفلچاه داتيت ليئوميت » (حزب المتديّنين القومي) . وأغدقوا علينا اسم « حداش » ، ولا بأس به، وهو « حزيت ديموقراطيت لِشَلوم ڤشڤَيون » (الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة) . و « ناحال » هي « نوعر حالوتسي لوحيم » (شبيبة طليعية محاربة) . و « تصاهال » هي « تْصڤا هَجَناه ليسرائيل » (جيش الدفاع لإسرائيل) . و « تصادال » هي « تْصڤا دْرُوم لِيبَنون » (جيش جنوب لبنان) .

و « الشاباك » هو الاسم « الرهيب » الذي أطلقوه على « خدمات الأمن العامة » (شيروتي بيطَحون كْلَلي) ليثيروا الفزع في نفوس « عرسان النيل »، خصوصًا حين يجري التأكيد، قولاً وفعلاً، على الشبه المريب بين اسم « الشاباك »، في إسرائيل، واسم « الساڤاك » في إيران. ويختلف المستشرقون، هنا أيضًا، على حق البكورة: هل هو للبيضة أم للدجاجة. ويروى عنّا أن أحد أوائل مستشاري رئيس الحكومة « لشؤون الأقليات »، ولنسمِّه - تصحيفًا ومزجًا - باسم « أولو »، حاول أن « يشبكها » بيننا (من شاباك) فعجز فذهب إلى « الساڤاك »، وكتب عنّا تقريرًا سريًا لفائدة « الشاباك »، و « الساڤاك »، و « السي آي إيه »، وهلمجرا الأمريكية، فطردوه. فهبط في بيروت، فطردوه. فأراد أن يفرّخ وأن يبيض في لَحْد فأخنى عليهما الذي أخنى على لُبَد. فأصبح مشيرًا صحفيًا. فأولو النعمة أولى بالمعروف. فهو « أولو » ونحن « حطابون وسقّاؤو ماء » والزمن طويل.

و« حُول » هي « حوتس لآرتس» (خارج البلاد). فنقول: قضى عطلته في « حُول » وسافر إلى « حُول »، والثوب الذي تلبسه الستّ هو من « حول ». وكذلك الحذاء وحريريات الداخل والخارج. ومدافع « ن.م. » ليست مدافع إسرائيلية سرِّية، كما قد يتبادر إلى أذهانكم. بل مدافع « نيچد

ميطوسيم »، أي « ضد الطائرات »، و « حِيل رَجْليم »، أي « جيش المشاة » . وجاءني، بعد حرب ١٩٦٧ ، نسيب من قرية في الضفة الغربية، وقال : إنهم، أي الإسرائيليين، يتغلّبون علينا، أي على العرب، بالطائرات والدبابات . ولكنهم لا يقدرون علينا بـ« المواشي » . فما هي « المواشي »؟ فحرّك السبابة والوسطى جاريًا بهما على الأرض حتى فهمت أنها « المشاة » . وأعتقد أننا نتغلّب عليهم، أيضًا، بالسيف، والتُّرس، وبالقصف الإذاعي، وبخلافاتنا على سعر السمك وهو في البحر، وبعدد الملوك والأُمراء والسياح من أهل البيت، والصحف والمجلات التي تصدر في لندن وباريس باللغة العربية إمعانًا في إقناع العرب بأن أرض الله واسعة، وما ضيِّق سوى الوطن.

وهناك « المانكال » (المدير العام)، و « السمانكال » (نائب المدير العام)، و « المزكال » (السكرتير العام)، والسمزكال (مساعد السكرتير العام)، و « المطكال » (القيادة العامة)، و « الرمطكال » (قائد الأركان)، و « إل عال » (« إلى العلا » – شركة الطيران الإسرائيلية) . وقد سبقت « عالِيَه » بعدّة سنين . قيل إن أصحابها، حين سمعوا بهذا الشبه، أجابوا : « بسيدر » . وهي كلمة متداولة في إسرائيل انتقلت إلى الضفة الشرقية، عبر الجسر، وتقوم مقام « لا بأس » بالعربية، أو

«عال العال».

وكان رفاقنا المصريون قد أوقعونا، في «أيام العرب»، في وقعة التصحيف والمزج هذه. استهوانا الاسم الذي اختاروه، آنذاك، لحركتهم - «حدتو»، وهو الأحرف الأُولى من «الحركة الديمقراطية للتحرُّر الوطني» - فأخذنا نوقِّع شعاراتنا، التي كنّا نخطُّها فوق جدران المنشآت العامة، ونهرب، باسم «ح.ش.ف.» حتى استدرجتُ أحد الأُدباء نحو الشعار فيقرأه فأتباهى أمامه ببطولتنا، وبتحدِّينا عسكر الانتداب: «أطلقوا سراح السجناء السياسيين». «أطلقوا سراح فخري مرقة ويحيى هواش وزملائهما». «أطلقوا سراح رضوان الحلو». «ليسقط وعد بلفور». «ليسقط الكتاب الأبيض». «لتسقط النازية». «افتحوا الجبهة الثانية». «عاشت فلسطين حرة مستقلة».

فسمعته يتلو، بصوته الرنّان، «ح.ش.ف.»، حمير شوارع فلسطين، فسحبناها رأفة بمعارفه، ولكنّنا لم نسحب فلسطين ولم ننسحب منها.

ولم نبق حميراً إلى وقت طويل، بل انتقلنا من تلك الحالة إلى حالة استحمار غيرنا. ويعود الفضل في ذلك إلى كبيرنا، ومعلِّمنا، محامي الشعب، حنا نقارة. فهو، رحمه الله، كان أوّل من علَّمنا فضل الرمز على المزج.

كانوا يلفِّقون تهمًا على فلاح، ويسجنونه ويعذِّبونه حتى يتنازل عن أرضه فيفكوا إساره. وكثيراً ما كان محامي الشعب «يلحقه» قبل أن يورِّطوه. فيزوره في السجن. ويكون لا يحقّ للمحامي أن يحادث السجين بكلام سوى إلقاء السلام عليه، وطلب توقيعه على توكيل. ويرافقه ضباط السجّانين عيونًا وآذانًا عليهما. فإذا شطّ عن الكلام المباح استطاعوا أن يضبطوه. ولا يأتمنون على هذه المهمّة سوى ذوي الرتب العالية، الضالعين في الركاكة. ويُخفونها وراء صمت يحسبونه رهيبًا أو غاية في الحصافة، والرصافة، والفطنة، والرزانة، و «سحنة البوكر»، وفي إخفاء معالم البلاهة والتفاهة. حتى إذا تواجها، المحامي والفلاح، بادره المحامي هاتفًا بكلمة واحدة:

– «خشِّب».

فلا يفهمها الضباط الضابطون. ولكنهم يتظاهرون بأنهم يفهمونها فيمعنون في الصمت الرهيب. أمّا الفلاح الحبيس فيفهمها كما يفهم الأرض تحت قدميه، والسماء فوق رأسه. أي: اصمت ولا تتزحزح عن أرضك وعن حقِّك. واترك الكلام، ما دمت في الحبس، لمحاميك. فيحفر الفلاح تلمًا بين شفتيه يحبس فيه ابتسامة رضاه عن نفسه، وعن محاميه، تنبت، في عينيه الغائرتين غور الزمن الغائر، سنديانة وزيتونة.

(٤)

محامي الأُمّة

أمّا المحامي العربي الشاب، الذي شاء سوء طالعه أن تكون سيارته «الجاغوار» ذات اللون الغامض، وهو يقودها، السيارة الأُولى المتوقِّفة أمام «الرَمزور» في نهاية شارع «هحالوتس»، ساعة جلطة المواصلات الشهيرة، فقد استرسل، منذ اللحظة الأُولى، في الرد على استجوابات المحقِّقين. بل دلق عليهم ما في سريرته وما في علانيته، ما هو مرتبط بالقضية وما هو في شؤونه الخاصة، دلقًا جعله، حين آن أوان الاعتراف بالجريمة، يعترف.

وأعلنت هيئة التّحقيق العليا، في حينه، أن «المحامي المخرِّب» لم يكتف بالاعتراف، بل تبرَّع بإعادة تمثيل الجريمة، دقيقة فدقيقة، على أرضها.

ما هي، بالضبط، الجريمة التي اقترفها؟

علمنا، فيما بعد، أن المحامي لم يسأل المحققين هذا السؤال. بل لم ينتظر منهم أي تحديد، لأية جريمة منسوبة إليه، لكي يُفلت لسانه الذرب من عقاله.

فلماذا لم يرفع رجله، إذًا، عن حابس السيارة، ويُفلت لها

العنان حين ظهر الضوء الأخضر أمامه في المرة الأُولى؟ قال: لأنني لم أكن راغبًا في التبويل. فسجَّلها له أصدقاؤه في الخارج (حول) مثلاً يحتذى على حسن التخلُّص.

فما الذي، أو من الذي، أشغل فكره عن الضوء الأخضر في ظهوره له في المرة الثانية؟

لقد كانت «تي»، لا «ذي». كانت امرأة يهودية شقراء تلتزم في مظهرها الخارجي الاحتشام الأُوروبي البشع، وتنادي بأن «الذوق في البشاعة»، أو «البشاعة هي الجمال»، وتتأنّق، في دخيلتها، بمظهر «الغموض». فلا تفتح عينًا ولا تغمضها إلاّ وتسمع أنها في «حول». أي سافرت إلى خارج البلاد. واعتراف المحامي بأنها هي «الذي» أشغل باله عن الضوء الأخضر، في المرة الأُولى، دفع هيئة التحقيق العليا إلى منع وسائل الإعلام من الإفصاح عن اسم المحامي تجنُّبًا للإفصاح عن اسم المرأة الغامض، حفاظًا على سمعة ذويها، وهم، كما قيل، من ذوي الطول (أي في الباع) والحول (أي في خارج البلاد أيضًا).

قال: كانت سيارتها، «المرسيدس» البيضاء، واقفة إلى يمين سيارته أمام «الرَمزور» مباشرة. فجاذبته التحية وأطراف معرفة سياسية وحسب، فألْهَتْه عن رؤية الضوء الأخضر حين ظهوره ثاني مرة.

- ففي المرة الثالثة؟

ابتسم صاحبنا المحامي ابتسامة عرضها أطول من طولها، فسجّلها له أصدقاؤه في الخارج (حول)، هي الأُخرى، مثلاً يحتذى على حسن التخلُّص.

ثم قال ...

هنا اختلفت الروايات في الكلام الذي نطق به المحامي جوابًا علي السؤال المحرج الثالث عمّا ألهاه عن رؤية الضوء الأخضر حين ظهوره للمرة الثالثة. ملأ زميلنا الصحافي الشاب العصري ثلاث صفحات «فول سكاپ»، ونصف صفحة، وثلاثة أسطر، وكلمتين، وعلامة تعجُّب، ونقطتين متتابعتين وراءَها، وبقعة حبر من آثار بصمته المحبرة (وهذه الدقّة تعلّمتها من المسعودي) في نقل مختلف الأقاويل عن جواب المحامي، على أثر ابتسامة حسن التخلُّص الأُولى، وعن تصرُّف المحقِّقين معه، ممّا دفعه، دفعًا، إلى الانهيار، بدءًا من تلك اللحظة.

أصرّ زميلنا الصِّحافي الشاب على أن ننشر في صحيفتنا، حالاً وسريعًا، أن أحد المحقِّقين ردّ على ابتسامة المحامي المطمئنة بأن أدار له خدّه الأيسر، ثم لطمه لطمة أعادت خدّه الأيمن إلى مكانه الأَول، ولكنها أوقعت المحامي أرضًا، كما جاء في النبوءات، فوقع المحامي في الشَّرَك المنصوب له، وقعة الفجاءة، فانهار في رائعة الظلام، وأرسل من بين شفتيه أنهارًا من

اعترافات لم يُبق فيها ولم يَذَرْ. فسجَّلها له أصحابه في الخارج مثلاً ثالثًا يُحتذى على حسن التخلُّص.

ففعلنا. نشرنا، في صحيفتنا، كما لا بدّ أنكم تذكرون، خبرًا رئيسًا عن تعذيب المحامي دون أن نذكر اسمه الصريح. وأطلقنا الشعار المرير: كُفُّوا اللطمة عن محامي الأُمة. فوقعنا وقعة مالية سنظل نسدِّد فوائدها حتى الجيل الثالث، والرابع، من أبنائنا وبناتنا، ومن أحفادنا وحفيداتنا، ومن أبنائهم وبناتهم من بعدهم، ومن بعدنا، كما جاء في نبوءة وزير المالية الأسبق، پنحاس سپير، عن تسديد أثمان حرب «يوم الغفران»، وفوائدها، وفوائد فوائدها، حتى يوم الدين، وسؤال الديّان الأعظم: ما الفائدة؟!

فلم يمض أُسبوع على ظهور الخبر وذلك الشعار الدبّر، في الجريدة، حتى جاءنا إِنذار المحامي، من قبل محاميه، أن ننفي الخبر والشعار جملة وتفصيلاً، وأن نعتذر له وللشرطة عمّا ألحقناه بهما من آلام نفسية، ولزوجته ولزوجة المحقِّق ولأولادِهما من آلام نفسية أُخرى، ومن تشويه سمعة، ومن إِيذاء في الرزق الحلال، هذا بانقطاع سيل الموكِّلين له في مكتبه، وذاك بتأخُّر ترقيته التي كان المدير العام قد أوصى بها الوزير وأرسلها إِلى مكتبه، وأن ننقد المحامي والشرطي، تعويضًا عن آلامهما النفسيّة وخسارتهما المادية، مبلغ نصف

مليون دولار لكل منهما، أي مليون دولار للإثنين، بالنقد الإسرائيلي، عدًّا ونقدًا دفعة واحدة. كل ذلك استنادًا إلى « قانون العيب » كما يسمُّونه في مصر، أو « قانون اللسان السليط » كما يسمونه هنا، أو قانون « الطعن بالذات الملكية » كما كانوا يسمُّونه في زمن الأتراك. فأُسقط في أيدينا. فلا ذات يد ولا ذات جيب. فحملونا إلى المحكمة حملاً. فتحاملنا على ضيق ذات اليد وذات الجيب فاعتبرتها المحكمة تحايلاً. وغرَّمتنا بدفع أتعابها، إضافة إلى دفع التعويضات المالية للمحامي وللشرطي عمَّا ألحقناه بهما من تعاسة نفسيّة وتعاسة مادّية.

فذهبنا إلى المحكمة العليا وحجّتنا أننا أردنا، بالخبر، الدفاع عن وطنية المحامي وإنقاذه من شينة الإقرار بذنب لم يرتكبه، فإذا كان ارتكبه فمن شينة الانهيار تلقاء اللطمة الأُولى. فاعتبرها محامي المحامي دليلاً على ضيق أُفق الشيوعيين وستالينيتهم الموروثة، وتخشُّبهم العقيدي، وتفضيلهم التهريج الكلامي على النهج العملي والواقعي وعلى حُسن التخلُّص. وشنّف آذان المحكمة، من قضاة ومن محامين ومدَّعين ومتدربين في مكاتبهم ومندوبي الصحافة والإذاعة والمستشار والمستشارين والحرس وأفراد الشرطة باللباسين الرسمي والمدني، والمنظورين وغير المنظورين، الجالسين منهم

على المقاعد، والواقفين منهم في زوايا القاعة الضيِّقة، أو المتّكئين بمناكبهم أو بدبورهم على الجدران وهم يتأبّطون أضابير من أوراق مكدّسة تتساقط، وتتبعثر، كلما تحركوا لاستعادة هيبة أو لإشعاعها على من حولهم، أو تحركوا، لالتقاطها عن الأرض، في هيبة مهيبة لا تخفى عن أنظار القضاة المشغولين في معركتهم المضنية مع أصحاب الأضابير المبعثرة الأوراق المكدسة في أيهما أغلب في الهيبة المهيبة. حتى إذا اشتدّ وطيس القتال بين الفريقين، تناوب التناوم لهما قاضي اليمين وقاضي اليسار، فيما استلقى لهم قاضي الوسط على قفاه حتى لا تبقى ورقة مرمية إلاّ استعيدت في اضبارتها.

قلت: شَنَّف محامي المحامي آذان المحكمة ببيت الشعر العربي القديم:

«ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له
إيّاك إيّاك أن تبتل بالماء».

فانذعر قاضي الوسط، وهبّ من نومته كأنّه الملسوع. قال إن إمعان «الاتحاد» في تزوير تاريخ حرب التحرير قد جرحه في الصميم. فمهما تتقولوا، قال، فلم يتّهمنا متّهم قبلكم بأننا ألقينا بعرب حيفا في بحر عكا وهم مكتوفون. تركنا أيديهم طليقة. فمن غرق منهم فلأنّه لا يُحسن السباحة، ولا يحقّ لكم أن تلومونا على ذلك، أو لم يجد له مكانًا في

قارب. ويحقّ لكم أن تلوموا، على ذلك، الإنچليز.

فأثنى قاضي اليسار على دفاع قاضي الوسط عن حرب التحرير، دون أن يتحرّك في استلقائه أو أن يفتح رمشًا لئلا يهرب من ذاكرته تاريخ. قال: صوموا وصلوا للديمقراطية وسبِّحوا بحمدها تسبيحًا، ففيما لم تدعنا النازية نهرب، لا في برّ ولا في بحر ولا في جوّ، تركناكم أحيانًا تهربون.

– لم نهرب، بل تركنا البلاد لأننا رفضنا الاعتراف بالدولة.

جاءت هذه المقاطعة من المحامي نفسه لا من محاميه. فاشرأب قاضي اليمين بعنقه وأثنى على صدق قوميّته.

فاحتجّ محامينا على هذا التدخُّل. فأسكته «محامي الديمقراطية» – أي قاضي اليسار – مذكّرًا إياه بأنه موجود في أُورشليم لا في موسكو. فأُسقط في يد محامينا فسقط في موقعه قاعدًا. فاسترسل محامي «الجاغوار» في قوميته الصادقة، التي اشرأب لها عنق قاضي اليمين، فأبلغ هيئة القضاة الموقَّرة أن والده، الذي أعطاكم عمره، لمّا لم تحمله رجلاه على تنفيذ قرار رفض الاعتراف بالدولة، أبى، لمدة ثلاثة أشهر بالتمام وبالكمال، أن يتسلّم من الدولة بطاقة الهُوية المدنيّة، خوفًا من أن تُحمل على محمل الاعتراف بها. ولم يتراجع عن هذا الإباء القومي والشمم إلا بعد أن ضمن لشعبه الفلسطيني المشاركة في اللعبة البرلمانية. أي بعد أن حملوه

إلى الكنيست على الأكُفّ، والسواعد، والحناجر، عضواً فلسطيني التطلُّعات، من قبل ٣٦ عامًا، فيها. وها نحن، قال، نعود ونلعب وما بُدِّلنا تبديلاً.

لم تنفع، في حينه، مداخلات محامينا ومحاولاته ردّ القضاة عمّا وقعوا فيه من التباس. فأصدروا حكمهم الشهير الذي اعتبره القضاء الإسرائيلي دليلاً على مساواته بين المواطنين، لا فرق بين عربي ويهودي وبين مدني وشرطي. كلّهم، في عيني القضاء، سواسية مثلما الصيّادون سواسية في عيني السمكة.

واستشهدت وزارة العدلية به ردًا على اتهامات لجنة «أمنستي» (العفو) «الدولية» دليلاً على أن المعتقلين هم الذين يعذّبون أنفسهم بأنفسهم، ويكسرون أرجلهم، ويفقأون عيونهم بأيديهم لكي يشوّهوا سمعة الاحتلال في العالمين. وكان الصليب الأحمر الدولي، بعد ذلك، لا يجد سببًا يدعوه إلى الظنّ بهذه الحجّة.

أما مِحامي «الجاغوار» فقد اعتبر قرار المحكمة العليا برهانًا على هيبة قوميته الفلسطينية النابعة من أصالتها. فلا هي شرقية ولا هي غربية ولا مبادئ له سوى فلسطين. فلما صرّح بها ولم يَحِدْ عنها، قال، أسرت ألباب قضاة المحكمة العليا. فأفرج ما بين إصبعي يده اليمنى في وجوههم علامة النّصر،

قال، فردُّوا العلامة عليه بأحسن منها انفراجًا.

وهذا ما نفاه محامينا نفيًا باتًا. غير أن الحقّ يجب أن يقال. والحقيقة أنه رفع إِصبعيه بعلامة النّصر وهو خارج من لدن هيئة التحقيق العليا في حادث جلطة المواصلات، بعد أن برّأت ساحته من أية مسؤولية عن الحادث. فقد شهد بذلك، أمامنا، زميلنا الصحافي العصري. ولكننا آثرنا كتمان هذا الأمر عن قرائنا إِنقاذًا لسمعة العروبة من هذه المصيبة.

لقد أوقعنا محامي «الجاغوار»، والحقّ يقال، في حَيص بيصَ. فما إِن اعتقلوه بتهمة تعطيل المواصلات في إِسرائيل، وهي في حالة حرب دائمة مع العرب، تعطيلاً مقصودًا، حتى هبّ العالم كله، وعلى رأسه عالم العروبة، يحتج على ضيق ذرع الديمقراطية الإِسرائيلية عن سائق سيارة، محام فلسطيني شاب واعد، تعطّلت سيارته، برهة، أمام «رَمزور»، فلفظته مخرِّبًا.

كان نواب «حركة الخضر»، في ألمانيا الغربية، أوّل من أطلق موجة الاحتجاج العالمية. فلما نشر أنه متّهم بالتخريب أسرعت حركة «الألوية الحمراء» في إِيطاليا إِلى تبنّي قضيته. فاضطُرّ، من باب حسن التخلّص، إِلى التنصُّل من أية علاقة له مع الكرة الأرضية.

فأنت، إِذًا، إِنسان متسلِّل. فاضطُرّ إِلى التنكُّر لأية علاقة

له بالإنسانية جمعاء.

ولكنّهم لم يطلقوا سراحه إلاّ بعد أن نشروا على الملإ تقريرًا كاملاً عمّا جرى في أثناء التحقيق معه: سؤالهم وجوابه. ثم سؤالهم وجوابه. وهكذا حتى خروجه من قاعة التحقيق رافعًا يده اليمنى بإِصبعَي علامة النّصر وهو ينشد قائلاً:

«ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له
إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء»

وأبلغنا زميلنا الصحافي العصري الشاب أنه رأى، بأُم عينيه، ضباط البوليس يشيِّعونه رافعين أيديهم، هم أيضًا، بعلامة النَّصر هذه. وقال إنه مندهش جدًا ولا يستطيع أن يفهم الداعي إلى ذلك.

غير أن دهشته لم تطل زمنًا. فسرعان ما أُصدرت البيانات، في الداخل وفي «حول»، عن انتصار الديمقراطية الإسرائيلية – في الداخل: إن الديمقراطية الإسرائيلية دفعت وتدفع ضريبة وجودها. وفي «حول»: أنه يوجد في إسرائيل ديمقراطية فيما هي معدومة في سورية.

أما فتاة المرسيدس الشقراء فقد تضاربت أخبار الرواة عن مصيرها. وآخر ما بلغنا عنها أنها تعمل سكرتيرة لمبعوث فلسطيني في عاصمة أُوروبية. وقيل إنها طلّقت زوجها وانضمت إلى الثورة، في «حول»، بعد أن اقتنعت، تمامًا،

بعدالة القضية الفلسطينية. قيل إن المبعوث المذكور مقتنع بهذا الأمر هو أيضاً. وهناك، في الثورة، من يجزم بأنها هي التي دبَّرت جلطة المواصلات في حيفا تدبيراً.

– فهل فعلت هذا الأمر بالاتفاق المسبق مع زميلها المحامي؟

– ابتسامة ذات عدّة معان.

– فهل فعلتها مبادرة ذاتية؟

– ابتسامة ذات معنى واحد.

– فمن أي فصيل؟

– أنت تريد أن تأكل العنب أم أن تقاتل الناطور؟

فأُمسكُ عن السؤال غير المباح وأنا أضرس بأسناني قهرًا، وأخرس جهرًا عن قوم لا ينفكّون يبلطون بحرًا فيما تجري دماؤهم نهرًا، ولا يُضمرون إلاّ لأنفسهم شرًّا، جوًّا وبحرًا وبرًّا.

(٥)

الملثّم

أمّا هيئة التحقيق العليا فلم تنفكّ عن الإمساك بالخيط الأمني. وأبلغنا زميلنا الصحافي العصري أنها استجوبت العديد من سائقي السيارات المتوقّفة، صفّين، أمام «الرَمزور»، بل عادت إلى المحامي نفسه واستجوبته في وقت لاحق. وذلك على أثر ما جاء في أقوال السيدة بلومنتال، سائقة سيارة عجوز، كانت تقف بسيارتها وراء سيارة المحامي، عن أنها شاهدت مخرّبًا فلسطينيًا شابًا، متلثّمًا بكوفيّته الفلسطينية، يتأبط «كلاشينك» ويمر مسرعًا بين السيارات المنجلطة.

– فلماذا لم يستجوبوني؟

أجابني زميلنا الشاب قائلاً: ربما لعلمهم بأنك ستنكر هذا الأمر حتى ولو شاهدته.

فماذا كان عليّ أن أقول لو استجوبوني؟

فلم يستجوبوني. وقد يكون إحجامهم عن استجوابي راجعًا إلى يقينهم بأنني لن أحجم عن الاعتراف بأنني كنت ذلك المسلّح الفلسطيني، ولكنني لم أتلثّم ولن أتلثّم.

كان اهتمام هيئة التحقيق العليا بظاهرة المسلّح الفلسطيني

الملثم اهتمامًا جِدِّيًا وواسع النطاق.

فلم تكن السائقة العجوز وحيدة في مشاهدة هذه الرؤيا. بل شاهدها، معها، وفي وقت واحد، شاب يهودي متديِّن كان يشتري ساندويتش فلافل من كشك الفلافل القائم في زاوية شارعَي «هحالوتس» و«الأنبياء». وقال إن المسلح اتّجه، في شارع «الأنبياء» يمينًا، حتى اختفى عن ناظريه وهو ينزل في درج «الموارنة». وعلَّم بائع الفلافل على كلام الشاب المتديِّن قائلاً إن المسلح نفسه عرّج على طبق الفلافل، وأخذ يتناول الحبّة بعد الحبّة. فلما اقترب منه ليوقفه عند حدّه أشهر في وجهه «الكلاشينك»» وصاح: «اختطاف». فرفع بائع الفلافل يديه إلى أعلى تسليمًا. وبقي على هذه الحال دون تحريك أي ساكن في انتظار مجيء موشي ديان.

وصدرت الصحف، في اليوم التالي، بعناوين ضخمة عن المسلّح الفلسطيني الملثّم الذي ظهر في عزّ الظهيرة، واتّجه من «حيفا الفوقا» نحو «حيفا التحتا»، عبر «درج الموارنة» الذي جعل الشيوعيون من دار قديمة، قائمة في إحدى زواياه، مقرًّا لهم.

ولمّا كان تخطيط هذه الخارطة الجغرافية صحيحًا، أي أنه يوجد نادٍ للشيوعيين في دار قائمة في زاوية من «درج الموارنة»، ولمّا كانت قيادتنا قيادة رصينة، أي غير متسرِّعة،

آثر الشيوعيون الصمت على هذا الدّس، خصوصًا وأنهم يعرفون أنه ما من دخان بلا نار. فلم يلفتوا أنظار الرأي العام إلى وجود بيت دعارة، أيضًا، في تلك الزاوية.

وذهب زميلنا الصِّحافي الشاب العصري إلى مركز شرطة حيفا، الذي لا يبعد عن «درج الموارنة» سوى بضعة أمتار، ليمارس سلطته الرابعة، فألقوا القبض عليه.

قال: جئتكم بنفسي.

قالوا: لا فرق. لو لم تأت لأحضرناك بالقوة.

قال: وما التُّهمة؟

قالوا: أنت الملثّم.

فأنكر ذلك.

فقالوا: أو رأيته.

فأنكر ذلك.

فطلبوا منه أن يقدِّم إليهم كشفًا وافيًا بأسماء أعضاء الحزب وأصدقائه وكل من تردَّد، في يوم من الأيام، على ذلك النادي، أو من الممكن أن يتردَّد عليه في المستقبل. فرفض.

فصدرت الصحف المسائية بأخبار نارية عن إلقاء القبض على شيوعي كبير مشتبه بأنه هو الملثّم الفلسطيني المسلَّح، وأنه يرفض التعاون مع المحققين رفضًا باتًّا.

ولم يُخْلوا سبيله إلاّ بعد أن أقام توفيق طوبي القيامة في

الكنيست على وزير الشرطة. وردّ وزير الشرطة على استجواب توفيق طوبي مُصِرًّا على أن الشاب رفض التعاون مع المحققين، وأن عناده هذا أثار ظنون المحققين، وأن هذا الشاب اعتقل قبل ١٥ عامًا، مع من اعتقل من أقرانه في المدرسة الابتدائية، بتهمة إسقاط علم الدولة من فوق سارية المدرسة، بعد عشرة أيام من يوم ذكرى استقلال دولة إسرائيل.

ووجدنا، بعد خروجه من السجن، من اتهمنا بالتسرُّع في الدفاع عنه، في حين كان يجب أن نعلم أنه ذو ماض «أمني». ووجد، هو أيضًا، من اتّهمه بالعناد، وبزجّ حزبه في أُمور هو في غنى عنها، وسوء التخلُّص.

أما محامي «الجاغوار» فمضى في نهج حُسن التخلُّص حتى نهاية هذا الطريق.

فلمّا عادوا إليه، يسألونه عمّا شاهده من ظاهرة ظهور المسلَّح الملثم، في رائعة النهار في شارع «هحالوتس»، قال إنه لا يستطيع أن ينكر الأمر.

– هل شاهدته؟

– من المحتمل.

– حدِّد إجابتك.

– إنني متأكّد من شيء واحد وهو أنه من المنتسبين إلى جبهة الرفض.

- فهل تستنكر فعلته؟

- نحن ضد الإرهاب من أية جهة جاء.

- حدِّد إجابتك.

- نحن ضد هذا العمل الإرهابي.

- حدِّد إجابتك.

- نحن ضد هذا الفلسطيني الملثَّم، والمسلّح، الذي ظهر في عزّ الظهيرة في شارع «هحالوتس».

وظهرت الصحف، في اليوم التالي، بعناوين صارخة عن المواطن العربي الأول في إسرائيل، المحامي الشجاع، الذي استنكر علنًا عملية الإرهاب «الأشافي» (نسبة إلى «م.ت.ف.») تلك التي وقعت في عزّ الظهيرة في شارع «هحالوتس».

وتساءَلت زميلتنا صحيفة «على همشمار»: لماذا لم نسمع صوت صحيفة «الاتحاد»؟. أين لجنة رؤساء السلطات المحلية العربية التي لا تدين سوى مجازر دير ياسين، وكفر قاسم، ورفح، وخان يونس، وقِبْية، ونحالين، والسَّمُّوع، وإربد، وقطع أرجل وسيقان رؤساء البلديات في «يهودا والسامرة»، وغارات جيشنا على مدارس البنين ومدارس البنات، ثم تصمت، صمت أهل القبور، على ما تتعرّض له الدولة كلها من خطر الفناء بفعل ظهور ملثّم فلسطيني مخرِّب في فناء

شارع «هحالوتس»؟!

فخفَّ العديد من الرؤساء إلى التبارز فيما بينهم على أيهم أحسن تخلُّصًا من هذه الورطة من زميله، وأشدّهم إخلاصًا لمبدإ المساواة بين الناس، معتدين أو معتدًى عليهم، ظالمين أو مظلومين، حتى كأنهم أسنان مشط واحد. لم يكتفوا بإدانة جريمة المسلَّح الفلسطيني الملثَّم على ظهوره، ظهور لمح البصر، في شارع «هحالوتس». بل أرسلوا طلاب مدارسهم للمشاركة في البحث عنه. وأحدهم، وهو رئيس المجلس المحلي في قرية اسمها «عَشَب»، على ما أذكر، تبرَّع من جيبه الخاص، بمبلغ مليون ليرة جائزة للذي يقبض على الملثّم الفلسطيني حيًا أو ميتًا. وكان ذلك حين كانت الليرة ليرة، وكانت الليرة تنطح الليرة. وهو ما لم يحصل في إسرائيل منذ خراب الهيكل.

كان زميلنا الصِّحافي العصري الشاب، والحقّ يقال، نافذ البصر والبصيرة. ففقّح (أي أبصر) تململاً بين السطور، فيما نشرته الصحف عن استخذاء بائع الفلافل وزبونه الشاب المتديِّن، وغيرهما ممّن كان شاهد المسلّح الفلسطيني الملثّم وأنكر الأمر استخذاءً. فكيف رفع هذا يديه استسلامًا، وكيف لم يطارده ذاك، وكيف تخشَّب مئات اليهود السابلة في تلك اللحظة، الراكبة والراجلة، من هول المفاجأة؟

استمرّ التحقيق السرّي مع بائع الفلافل ومع زبونه المتديِّن، كلاً على حدة، أكثر من أُسبوعين، فيما قام رئيس الدولة باستضافة السيدة بلومنتال وقلّدها، في حفل رسمي بهيج، وسام المشاركين في حروب إسرائيل، لقاء شجاعتها في الصمود والتصدي، على رؤوس الأشهاد، لظاهرة ظهور المسلّح الفلسطيني الملثّم في قلب مدينة حيفا في رائعة النهار. فلما ذكرته بأصلهما المشترك، وبأن عائلتيهما تجاورتا سنين عديدة في السكن في حي أُوروبي من أحياء جوهانسبورغ، في جنوب أفريقيا، قلّدها قبلة أخوية، وهمس في أُذنها: «مش وقته». فضحكت وهمست في أُذنه أنه «شيطان». فحملتها الصحف دليلاً على شعبية رؤساء الدولة.

ولم يطلق سراح الشاب اليهودي المتديِّن، الذي كان يشتري ساندويتش الفلافل، إلاّ بعد تقديم الشهادات عن رؤية الصحن الطائر، والسيف المسلول من تحته، وهبوط لابس «الشنطة» عليه. فقد عاد هذا الشاهد وأعلن - وذلك ما جاء في الصحف في حينه - أنها المرة الأُولى التي يلتقي فيها عربيًا وجهًا لوجه، ولذلك اختلط أمره عليه.

وبرّرت الصحف هذا الجهل العجيب بأن هذا الشاب المتديِّن لم ينضم إلى جيش الدفاع الإسرائيلي، ولذلك لم يشاهد عربيًا، حيًّا أو ميتًا.

وأبدى الشاب المتديِّن دهشته حين أبلغه المحقِّق أن شوارع إسرائيل ملأى بالعرب. وقال: هل يرتدي العرب من الثياب ما نرتدي؟ فأجابه المحقِّق: رجال الدين منهم. وبناتهم؟ قال: يخلعون ما تخلع بناتنا. فانخلع ضلع في صدره.

أمّا بائع الفلافل فلم يُطلق سراحه، إلاّ بعد زوبعة في فنجان، أثارها وزراء من السفراديم ومن حزب المتديِّنين (المفدال). وذلك على أثر قيام أُستاذ محاضر في جامعة بن غوريون في بئر السبع بإنشاء بحث تاريخي - نفسي، (وهو اختصاصه)، نَشَرَهُ في صحيفة «هآرتس»، ألمح فيه إلى ضحالة الأحاسيس القومية التي تعتمل، أو لا تعتمل، في صدور اليهود القادمين من البلدان العربية (السفراديم)، وأنها مكتسبة وغير موروثة. أي ليست أصيلة. لم يشاركوا - قال - في الموت في أفران الهتلرية في أُوروبا. بل كانوا، في تلك الأثناء، يتآخَون مع كارهي إسرائيل العرب في البلدان العربية. فوجدنا بناتهم - قال - يتهرَّبن من خدمة العلم، مثلهن مثل بنات العرب وأبنائهم، فانحطّت شجاعتهم إلى مستوى شجاعة العرب، فآثروا الحياة على حياة الدولة ومواصلاتها.

وقيل إن ظهور هذا البحث أدّى بالفريقين إلى محو وصمة العار هذه بأساليب شتّى. فأُولئك تحوّلوا عن إعلان داڤيد بن غوريون ملكًا على إسرائيل، حيًّا حيًّا، إلى تنصيب مناحيم

بيغن ملكًا على إسرائيل حيًّا حيًّا. وهؤلاء أرسلوا بناتهم، مدجَّجات بالعوزي، لقطع الطرق في المناطق المحتلة على مصوّري الصحف الإسرائيلية، والتلفزيون الأردني، الذي لم ينقطع، منذ ذلك الحين، عن تقديم صُورِهم مثلاً، حيًّا حيًّا، على ضرورة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرض العربية قبل ضياع الضفة الشرقية، أيضًا أيضًا.

(٦)

عطيّة

سقى الله أيام «أيضًا أيضًا». فتلك كانت أيامًا حيفاوية أصيلة. وكنّا، كما كانت حيفا، في شرخ الشباب، وميعة الصبا، نملأ بهما أسواقها وحواريها. وكانت تُسمع لنا جلبة. فطلب الحزب منّي أن أعمل على توزيع صحيفته السرية، «نضال الشعب»، على رؤوس الأشهاد، لأَوّل مرة، ومثلما يجري توزيع الصحف العلنية الأُخرى في البلاد: ينادون عليها مردِّدين أهم ما فيها من عناوين أخبار أو تعليقات. وكانت أصوات باعة الصحف، من أولاد وشبّان وشيخ مزمن هنا وهناك، تختلط بأصوات باعة السحلب الساخن و«التمريّة» في الصباح – «تمريّة، يا تمريّة. الحبّة أوقية يا تمريّة» – في سيمفونية خلَّدها ريمسكي كورساكوف في معزوفته الباقية ما بقي الشرق والإنسان، «شهرزاد».

تمريّة، يا تمريّة. في أي مخيم لاجئين، في بلاد العرب، حطّت بك الرِّحال؟ أم أصبحت هناك، كما أمسيت هنا، مجرّد ذكرى؟

كنّا في أوائل العام ١٩٤٣. وكانت بريطانيا، صاحبة

الانتداب على بلادنا، تجرجر مستعمراتها جرجرة نحو الحلف العالمي - مع الاتحاد السوفييتي - المعادي للفاشية. وكانت تتمنّع عنه لو كان الأمر وقفًا عليها. فقررنا أن نمتحن صبرها بأن نمتح هذا الحبل ببيع الجريدة السرِّية كما لو أنها مرخَّصة.

وكان موقعي في شارع «العراق» في نادٍ أسميناه «نادي الشعب». وكانت الدنيا، بعد، خيرًا. فكنّا قادرين، بعد، على التهندم سحنةً ولباسًا وحذاءً. وكنّا نفعل هذا الأمر، أيضًا، محاولة منّا أن نخفي عن أعين الناس ما كنّا نحسبه عيبنا الظاهر. وهو صغر أعمارنا. كان لقب «الرفيق» إباحيًا مستباحًا. وأما لقب «الزعيم» فلم يكن مباحًا إلاّ للزعماء. فأبحنا لأنفسنا لقب «أُستاذ» سحنةً ولباسًا وحذاءً.

وكان اهتمامنا مُنْصَبًّا على الحذاء خصوصًا، وذلك محاولة منّا أن نمحو من أذهان الناس صورة مشوّهة عنّا دُسّت في أذهان الناس دسًّا ضدّنا. وهي أننا نحتذي الأحذية المهترئة عمدًا، ونثقبها بأيدينا، ونُخرج منها أصابع أرجلنا عمدًا لكي نثبت، بذلك، أننا والناس الحفاة أُخوة وسواسية.

وكانت هذه الصورة أشدّ تشويهًا في فلسطين نظرًا لما كان «الطليعيون» من كيبوتسات «هشومير هتسعير» يتهادَون به من أردية رديئة، ومن أحذية مهترئة، يُخرجون منها أصابع أرجلهم ظنًّا منهم أنها من دلائل انتمائهم الطبقي إلى جمهور

المعادين للأفندية من العراة الحفاة، حتى أوهموا النّاس بأن المساواة التي نسعى في سبيلها هي تساوي الناس في الفقر.

فكنت أحلق ذقني لدى دكان الحلاق «عطا»، في طريقي إلى شارع «العراق»، مرّة في اليومين شبوبيّة. وكنت أمسح حذائي لدى الشاب «عطية»، في مطلع الشارع، مرّة في اليوم مبدئيًا. فتصادقنا.

فلما أتاني قرار الحزب بأن أعرض صحيفته السرِّية في الأسواق عرضًا علنيًّا لم تأتني حيلة سوى الشاب «عطية». فجئته.

قلت: كم تكسب في اليوم يا عطية؟

قال: عشرة قروش.

قلت: ضع صندوقك في النادي، وهاك عشرين قرشًا، وَرُحْ وزّع هذه الجريدة على الناس، النسخة الواحدة بمِلِّيم واحد. وهي، أيضًا، لك.

قال: فكيف أُنادي عليها؟

قلت: جريدة العمال.

قال: وهل للعمال جريدة؟

قلت: للعمال، أيضًا، جريدة.

قال: أيضًا.

قلت: أيضًا وأيضًا.

فأخذ الرزمة وأخذ ينادي عليها لتوِّه: جريدة العمال يا أساتيذ.

فحملت صندوقه واختبأت في النادي، فعاد بعد نصف ساعة مهشَّمًا وهو يبكي.

قال إن الأساتيذ تخاطفوها. واجتمع عليه خلق كثير. فصاح صائحهم: هذه شيوعية. فهتف: للعمال أيضًا. فهمّ به شرطي. انتهره الشرطي سائلاً: ماذا تقول؟ قال: قلت «أيضًا». فلطمني على خدّي. فصحتُ، متحديًا، «أيضًا أيضًا». فأعجبتني «أيضًا» هذه. فأخذت أُردّدها. فأخذ يردِّد لطماته ويردِّدها بعدي حتى أوقعني أرضًا. ولم يتركني إلاّ بعد أن انتزع منّي نسخ الجريدة وما في جيبي من ملاليم. فلماذا لا تخبرني، يا صاحبي، بأن «أيضًا» هذه ممنوعة؟ وما معنى «أيضًا» هذه يا صاحبي؟

قلت: إن معناها «كمان». فابتسم. كان صديقًا صدوقًا. فأصبح يلمِّع حذائي ثم يسأل: أيضًا؟ حتى جاءَني يومًا إلى النادي وطلب منّي أن أُعلِّمه القراءة «أيضًا». ففعلنا.

كان عطيّة من أبناء الجنوب اللبناني. وأصبح، فيما بعد، دبّاغًا في «سوق الشوام» في حيفا. وعايش «الاتحاد»، وشارك في توزيعها أيضًا، النسخة بقرشين. ثم اضطُر إلى الالتجاء إلى وطنه. فهل هو عائش وأين هو عائش؟

كم من أثر لحق عطيّة أن ينقشه على جدران حيفا قبل أن يلحقوه ويمحوه ويمحوا آثاره. فمنذ أن فكّ الحرف فُكّت مواهبه الحبيسة. ومنها خطُّه الجميل. فكنّا نشقّ عباب الليل ونحرسه من لصوص الأمن والظلام فيما كان ينقش، بخطّه الجميل، جدران «حيفا التحتا» بشعاراتنا النارية. لقد بقي شعار «أطلقوا سراح رضوان الحلو»، بخطّ فرشاته الحمراء، ظاهراً على أحد الجدران المحيطة بمحطة سكة الحديد القديمة حتى أواخر الخمسينات. وكنت أتقصّد المرور من «شارع الناصرة» حتى أطمئنّ، بالإطمئنان على بقاء هذا الشعار، على عطية وعلى إخوتنا الذين التجأوا إلى كنفه، فردّ لهم الضيافة بأحسن منها. فقد ابتلانا الدَّهر، مثلما ابتلاه، نحن أيضًا. ثم ابتلاه هو أيضاً. وكانت «أيضًا» هي الكلمة الأُولى التي فكّها عطية. وكان أوّل من أدرك أن «أيضًا» هذه تتكرّر أيضًا وأيضًا. فهل من الممكن أن تكون أنت، أيضاً، نسيتنا يا عطيّة؟!

الدفتر الثاني

إِخْطِيَّة

« أرى خلل الرماد وميض جمر
ويوشك أن يكون له ضرام »

(نصر بن سيّار)

« شيء عفن في دولة الدنمارك »

(مارسيلاس)

(١)

عودة أبي العباس

كان بيت والدي عبد الكريم أوّل بيت شُيِّد في جوار حدائق البهائيين، على سفح الكرمل الشمالي المطلّ على عكا. فلا يحول بينهما سوى البحر.

وكان البَها عباس، بعد، حيًّا يرزق، وكان ذا بهاء. لا يخرج من داره إلاّ في ساعة ثابتة، يومًا يومًا، من ساعات العصر، فيما كان حواريوه يسيرون وراءَه على بعد خطوتين منه، صفًّا واحداً، وقد عقد الواحد منهم ما بين كفَّيه، من أمامه، وطأطأ الرأس هيبة من هذا البهاء. فإذا توقّف البَها عباس عن المسير توقّفوا. ويكون ذلك إيذانًا منه بأنه سوف يتكلّم. ولا يتكلّم إلاّ وهو واقف. ولا يحوِّل وجهه نحوهم حين يكلّمهم. ولا يجيبونه إذا حقّ الجواب عليهم، أو على واحد منهم، إلاّ إيجازاً، وبما يشبه الهمس وهم مطأطئو الرؤوس. فإذا عاد ومشى مشوا. فإذا عاد وتوقّف توقّفوا وأصاخوا السمع.

وعلقت هيبة هذا البهاء بالحي الجديد كله وبساكنيه، من كبار ومن صغار. فكان الناس يُخلون الطريق لذلك الموكب إجلالاً. وكان الأطفال يبتعدون عن طريقه غاضّين الطرف

عن هذا المجهول: أسلم عاقبة. وكانت رهبة هذا المجهول تلاحقهم حتى حين كانوا يجرؤون على اختراق سياج الحدائق. وكانوا يخترقونها بحثًا عن أعشاش طيور. وكان حارس الحديقة البهائيّ يكمُن لهم، أحيانًا. فإذا انتصب أمامهم، فجأة، تسمَّروا في أماكنهم لا يقوَوْن على الهرب. فإذا سألهم عمّا يفعلونه تلعثموا ولم يَحاروا جوابًا. فكان يدفعهم من أكتافهم، دفعًا خشنًا، حتى عتبات بيوتهم. فيدخلونها صامتين. وتصمت أُمهاتهم أيضًا. ولا يتذاكرون، فيما بينهم، أحداث هذه الواقعة. فكأنّها لم تكن. وكان الشعراء من بينهم ينتظرون اكتمال البدر ليخترقوا السياج، وليقرأوا ابن أبي ربيعة، أو ابن الملوَّح، أو العَبْسي، أحيانًا، على ضوئه. وكان الحارس يغضّ الطرف عنهم، في هذه الحالة، ولسان حاله يقول: يقرأون على بهاء البها عبّاس. فأطلقوا على الشارع الجديد اسم شارع عباس قبل أن تطلقه البلدية على هذا الشارع بخمس سنين على الأقل.

فاشتد خفقان قلب عبد الكريم لمّا أدرك أنه مُطلّ على شارع عباس بعد غيبة ثلاثين عامًا.

فلما طال انتظاره، أمام «الرَمزور»، وهو جالس في المقعد الأمامي إلى جانب سائق التاكسي، أغمض عينيه مخافة أن يظنّوا الظنون بلهفته.

منذ أن وطأت قدماه أرض مطار اللد (بن غوريون) وهو يشعر بأنه غريب الديار، وبأشد من هذا الشعور مضاضة. ولكنّه، الآن فقط، استكنه حقيقة هذا الشعور الآخر. لم يجرب، حتى الآن، شعور المتسلِّل إلى بلد محرَّم على قدميه أن تطأه وهو موجود في ذلك البلد. ولكنّه يحسّ الآن، إحساس المتسلِّل، بالخوف من أن يضبطوه، في كل لحظة، متلبِّسًا بحقيقة مشاعره. متلبِّسًا أم متشبِّثًا بهذه الحقيقة.

فحشر جسمه، بطوله الفارع، بين رموش عينيه متناومًا لهذا العدوّ. وأقعى له، بين الرموش، متحفِّزًا للانقضاض ما إن تبدر نأمة. كان فارع الطول ذا شعر أسود فاحم السواد على بشرة سمراء تكاد تقول للعدوّ: خذوني.

وكان في مطلع الستِّين من عمره. سليل عائلة تعمّر ولا تصلَع. تشيِّب ولا تشيب. اشتهرت بالكدّ وبالكدح وبطول آذانها، وبالتصامم عن المذلّة. كان في «زمان العرب»، يعمل في ورشة شركة بترول العراق (آي پي سي)، وكان يسمِّيها «الأبسبيه» مسايرة لزملائه. فرحل معها، في العام ١٩٤٨، إلى طرابلس الشام (لبنان). كان، منذ أيامه في حيفا، يقضي للسيدة عبلة تماري «مهمَّات صغيرة». فانتقل، وهو في طرابلس، إلى العمل في شركة مقاولات فلسطينية الأصل أسَّسها، شراكة، كامل عبد الرحمن وإميل البستاني، واختارا

لها اسم شركة «ك.أ.ت.» (كونتراكتورز أند تريدورز)، إذا لم تخنّي ذاكرتي. فبعثوا به إلى السعودية وكيلاً عنها. فاختارته موظفة أمريكية، في مثل قامته طولاً وسنًّا، زوجًا لها. وأعطته الجنسية الأمريكية وبيتًا وبنتًا واحدة، وأصرَّت على أن أصله من «إزرايل» لا من «پالستَيْن». فهرب منهما والتجأ إلى مدينة ديترويت، حيث يكثر العرب والزنوج ويتكاثرون. وعمل في مصانع سيارات «فورد» أمام «قشاط متحرِّك». وأبلغ زملاءه العمال، العرب والزنوج، أنه خلّف – في «الوطن» – ابنًا بكرًا اسمه عباس. وسوف يعود، في يوم من الأيام، للبحث عنه. فناداه العرب بأبي العباس. وناداه الزنوج باسم «أباس».

وها هو اليوم عائد إلى شارع عباس. ولكنه عاد ليبحث عن أمر آخر.

كان حريصًا، منذ أن هبطت طائرة «إلعال» على أرض المطار، وصفَّق ركابها الأمريكان والإسرائيليون احتفالاً بهبوطهم سالمين في أرض الميعاد، أن يُخفي سرّ أصله وفصله. وهمّ بأن يقبِّل أرض المطار، مثلما فعل شاب أمريكي ذو لحية كاهن، ولكنه أحجم عن ذلك في اللحظة الأخيرة، مخافة أن ينتبه رجال الشرطة والمخابرات إلى أن قبلته أصيلة لا اسخريوطية، بَنويّة لا بالتبنِّي.

اختار أن ينام ليلته الأُولى في تل أبيب إمعانًا في التمويه على العدوّ. وقال في نفسه: فأُخفف من لوعة النار في صدري. ثم سافر إلى القدس ونام ليلته الثانية في «الأميريكان كولوني». وقال في نفسه: أفعل مثلما يفعل الطائر الذي يحوم بالقرب من عشّه قبل أن يهبط. فأثقل الأمر على جناحيه ولم يطقْ صبرًا.

فسافر، في صباح اليوم التالي، إلى حيفا عبر مدينة نابلس «دوز دوغري». وذلك بعد أن ترك حقائبه في الفندق المقدسي. فلما ضاق ذرعًا بالانتظار الطويل، أمام «الرمزور»، فتح باب سيارة التاكسي وخرج لا يلوي على شيء.

ألقوا القبض عليه، بعد خمسة أيام أو ستة من الحادث، فيما كان يتسكّع جيئة وذهابًا في شارع عباس أمام سور الراهبات. وكان يحمل علبة صغيرة من التنك من تلك التي كانوا يملأونها بحلويات «الطوفي» الإنچليزية في «أيام العرب».

وجاء في الصحف، فيما بعد، أنه انهار منذ اللحظة الأُولى، فأخذ في التعاون مع المحقِّقين بلا حرج، واعترف بجميع الجرائم المنسوبة إليه، وقادهم، طواعية بلا إكراه، إلى مختلف الأماكن التي اقترف فيها جرائمه الأمنية العديدة.

جرائمه؟

لنبدأ بالجريمة الأُولى التي اقترفها، في هذه المرَّة، فكانت، في أيدي المحقِّقين، أوّل الخيط في بَكَرَةٍ من الجرائم القديمة، الواحدة منها تقود إلى جريمة أقدم منها. وهكذا حتى خروجه من بطن أُمه من غير إذن.

فَحَسْبُهم أنه فتح باب السيارة وخرج منها إلى وسط الشارع، في أوج الزحمة، دليلاً على فعل مريب. فما بالك وقد شهد عليه شهود عِيان، من مواقع شتّى في الشارع وفي آن واحد، أنه أقدم بعد ذلك على فعلة أشد إثارة للرِّيبة؟

كان أفراد الحرس المدني، في ذلك الوقت، في حالة من الاستنفار أقرب ما تكون إلى الانهيار الذاتي. فإذا فرقع إطار سيارة تراكضوا من كل حدب وصوب إلى إخلاء مكان الحادث من الناس. فإذا تعاقبت الفرقعة - بُمًّا وبُمًّا وبُمًّا - ، وتكون خارجة من عادم سيارة مثقوب، طوّقوا مكان الحادث ومنعوا الخروج منه أو الدخول إليه. وتبلغ اليقظة أشدّها حين يقفون على أبواب قاعات العرض السينمائي، لا فرق في ذلك بين نهار أو ليل: يفتِّشون حقائب الداخلات وعيون الداخلين، وجيوبهم أحيانًا. فإذا خرج خارج من قاعة العرض قبل انتهاء الفيلم المعروض وخروج الناس جميعًا، طلبوا بطاقة هُويته. فإذا صحّفوا اسمه بأنه عربي سجّلوا محتويات الهُويّة، وأثخنوه بنظراتهم المرتابة، حتى يرتاب بنفسه ويتصبَّب جبينه عرقًا.

فتشتدّ ريبة المرتابين. وقد يستدعون الشرطة لإجراء المزيد من التحقيق. فإذا كان جاء إلى دار العرض السينمائي مصطحبًا صديقة ذات زوج أو ذات قيد، أو يكون هو المقيَّد، آثر العودة معها إلى مقعديهما. أما إذا كانت صاحبته من أبناء عمومته أخرسته وأعلنت أنه زائر أمريكي. فإذا وجدت بين الحُراس من يفكّ الحرف الإنچليزي أعلنت أنه أمريكي أصمّ وأبكم.

– ويوجد أمريكان صُمّ بُكم؟

– يوجد.

– إصابة حرب؟

– حروب.

– ڤيتنام؟

– ڤيتنام.

– شكله عربي.

– وأنت شكلك عربي.

فيتضاحكان ويدعهما يبتعدان عن ناظريه كما الشرّ إبعدْ عنه وغنٍّ له. ويكون يصفّر بلحن غناء أمريكي شائع.

(٢)

مليحة

أمّا المحققون مع عبد الكريم أبي العباس فلم يضحكوا البتّة. فقد شاهده شهود عِيان وهو يقذف بنفسه من سيارة التاكسي، ويركض وراء فتاة كانت تجري في وسط الشارع ما بين السيارات المزدحمة، حافية القدمين وحاسرة الرأس، عريانة إلاّ من ثوب نوم أبيض ملطّخ بالوحل وممزَّق عند الصدر، مشقَّق الطرف السفلي وهي تحمل، محتضنة في صدرها، طفلة في عامها الأول، عليها أطمار بالية.

– إِخْطَيِّة.

كان عبد الكريم أبو العباس هو الذي هتف بهذا الاسم الغريب فأثار دهشة المحقِّقين الذين أحاطوا به إحاطة السِّوار بالمعصم. وكان جالسًا على كرسي من دون ظهر في وسطهم. فقام عن كرسيِّه وهو يهتف: إِخْطَيِّة. إِخْطَيِّة.

أطلق هذا الاسم الغريب ألْسِنة المستشرقين، والمستعربين، في لغط أكاديمي دفع رئيس الهيئة إلى وقف التحقيق مع عبد الكريم، للتشاور المغلق فيما بينهم صونًا لهيبة الهيئة أمام المتهم المسكين الذي من المفروض فيه أن لا يرى من جسم الهيئة

إلاّ وجوهها الوحشية، وألا يراها إلاّ وجهًا واحدًا بفمٍ لا يحتوي على لسان، بل على هِراوة في مكان اللسان. وكان رئيس الهيئة يحافظ، بهذا القرار أيضًا، على هيبته هو نفسه أمام مرؤوسيه وقد توهَّم أن لغطهم الأكاديمي، الذي لم يفهمه، هو عِلْم يقصر عنه فهمه.

كانوا سمعوا، من قبل «إخْطَيِّة»، عن أسماء عربية غريبة. وأحدهم، ممّن تعمَّق في السطحيات، قال إنه لم يجد إلاّ في اللغة العربية أسماء هي من الفعل المضارع، من مثل يحيى ويزيد.

– ياقوت.

أطلقها الرئيس. ثم لام نفسه على هذا التسرُّع وهو في وسط الكلمة. فجاءت ياقووت – ضِغْثًا على إبّالة. فتجاهلها الآخرون احترامًا لجهل الرئيس، أو خوفًا من أن يكونوا هم الجهلة.

وتذكّر آخر، منهم، أسماء عربية على فعل الأمر. من مثل «كفى». وهي – قال – من الأسماء التي يطلقونها على البنت التي تولد بعد ثلاث بنات، أو أربع، من البطن الواحد، لعلّ السميع المجيب أن يستجيب لهم ويعطيهم الصبي.

ويسمونهن تيمُّنًا – قال – نهايةً ونُهى.

واستشاروا قَصّاص أثر بَدَويًّا مُحالاً على المعاش لكبر سِنِّه

كان يعمل في قصّ آثار المتسلِّلين منذ نعومة أظفارهم. وكان جاهلاً كذّابًا أخفى عنهم جهله، طول هذه السنين، بأن كان يقودهم إلى أي بيت عربي تقوده قدماه التائهتان إليه عَرَضًا، فتقع عليه واقعتهم. وكان يظنّ أنه ضحك على ذقونهم. وكانوا يضحكون على ذقنه. وكانوا عن ضمائرهم راضين وكانوا مرتضين به. فأخبرهم أن من أسمائهن أيضًا، في الحالة المذكورة أعلاه، «الزعلة».

أمّا «اخطيّة» - قال - فيذكر أنه كان سمع جدّته تصرخ في وجه والده: «اخطيّة»، حين همّ بضرب ابنته الصغيرة (أُخت الراوي الصغيرة) عقابًا لها على إيثارها اللعب مع الأولاد الذكور. ومعناها أنّ البنت «خطيّتَك». أو أنّ ضرب القاصر «خطيئة». وقد يكونون - قال - سمّوا تلك البنت «اخطيّة» أو «خطيّة» لأنها وُلدت سابع بنت أو ثامنًا أو عاشرًا، أو حين همّ والدها بوأدها.

ولمّا كان قصّاص الأثر المتقاعد جاهلاً وزنديقًا - زنديق الأرض وزنديق السماء - فلم يبلغهم بما لم يعلم. وهو أن الإسلام حرّم وأد البنات. ونجح في الأمر بقدر ما نجح في تحريم الحروب، وفي تحريم الجوع، وفي تحريم السبي، وفي تحريم انتهاك كرامة الناس، من ذكور ومن إناث.

فأفلت المستشرقون والمستعربون أقلامهم تعيث في تراثنا

فساداً وفي ماضينا تمثيلاً. حتى تراءى لقرائهم أنه ما من جاهلية، في تاريخ الحضارة، سوى جاهلية العرب.

وكان أشدّ المتحمّسين لهذا العبث المتعمّد شبان أخذوا الدين عن بقايا مماليك. ففرضوا على بناتهم وزوجاتهم أن يرتدين الأكفان وهنّ أحياء يضججن بما رزقهن الرزّاق.

ولم يجدوا، في معمعة القضية الأمنية، من يقول لهم: ليس كل ما حرمه الإسلام كان منتشراً في الجاهلية. فأين كانت العرب العاربة تجد، مثلاً، لحم الخنزير؟ كانت صعاليكهم تبحث عن الماء في الفيافي حتى تموت عطشاً، فأين كانت تجد الخمرة؟ ولو وأد العرب بناتهم في الجاهلية لانقرضوا. وهل كانوا يجدون متّسعاً من وقت، بين غزوة روميّة، وغزوة فارسيّة، وغزوة مغوليّة، وغزوة صليبيّة، وما بعدها، وحتى يومنا هذا، كانت تئد البنين والبنات وتئد المستقبل وهو في الأرحام، لكي يئدوا بناتهم بأيديهم؟

– فأسدلوا على وجوههن البُرقع والخِمار الأسود وحجبوهن، جيلاً جيلاً، وحتى يومكم هذا.

إن من يصرّ على إسدال هذا الخمار على تراثنا الإنساني المسفر هو ذو عقل أخفّ من عقل الحمار. فتراثنا هذا هو ما خلّفه لنا الفَعَلة والأكّارون لا ما خلفه لنا مدّعو الخلافة الأكّالون النكّارون. وكان سواد الشعب فَعلَة أرض: فلاّحين وفلاّحات.

أكّارين وأكّارات. عُراة إلاّ من مئزر وفوقه طين الأرض. فكيف ينفعهم بُرقع أو خمار؟ وأي حجاب يقيهم لظى الفاقة؟ حتى الكوفية العربية لم يتركها مسترسلة على الأقفية سوى « ريّس » وتاجر وسيد في قومه. أما السواد، من فَعَلة، رجالاً ونساء، فكان يعصبها فوق رأسه اتّقاء لحر الشمس ولنار القهر التي تلسع صدغيه من الداخل.

فإذا وقعت الحرب بين الأمين والمأمون، من أسيادهم، قاتلوا عراة إلاّ من التبابين والميازر في أوساطهم، وقد اتّخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسمّوها الخوذ، وسُمّوا، في ذلك الحين، بجيش العيّارين. وهم الفَعَلَة والحمّالون والأكّارون والأُجراء، وفيهم يقول الشاعر الأعمى:

« خرّجت هذه الحروب رجالاً لا لقحطان ولا لنزارِ
معشر في جواشن الصوف يغدون إلى الحرب كالليوث الضواري
واحد منهم يشدّ ألفين عريان ما له من إزارِ
ويقول الفتى إذا طُعن الطعنة: خُذها من العيّارِ »

فأين موقع الكوفية البيضاء من هذا الفتى العيّار؟ حتى ولا الكفن.

– والخِمار الأسود؟

– ما له الخمار الأسود؟ كان فرسان حضارتكم، في يوم مضى، يتباهون بحزام العفّة. وكانوا يقفلونه على زوجاتهم،

بالقفل وبالمفتاح. ثمّ يغيرون على أوطاننا وينتهكون أعراضنا بالسيف وبالصليب.

إن بقي بضع من نسائنا، في زوايا هذه المعمورة وأطرافها، يتّقين الأعين الكاسرة بالخمار الأسود، فما له الخِمار الأسود؟

هل استطاع حزام العفّة، عندهم، أن يوحي إلى شاعرهم بما أوحى به الخمار الأسود إلى شاعرنا فقال:

«قُل للمليحة في الخِمار الأسود
ماذا فعلت بناسك متعبّد

قد كان شمّر للصلاة ثيابه
حتى وقفت له بباب المسجد»؟

ماذا كان شاعرهم يقول؟

«قُل للمليحة في حزام العفّة
ماذا فعلت بناسِك متعبّد

قد كان أرخى للصلاة ثيابه
حتى شَمَرْتِ له بباب المعبد»؟!

وكنّا، في تلك الأثناء، نُجري هذا الحوار في هيئة تحرير الصفحة الأدبيّة من جريدتنا، وسمّيناه «الأدب الجنائي» أُسوة بما قرأناه عن «الطبّ الجنائي». وأذكر أن زميلنا الصحافي العصري الشاب أبلغنا لأوّل مرّة في إحدى هذه الجلسات،

أنه من أصل بدوي عريق، وأمّا قصّاص الأثر المُحال على المعاش – قال – فليس سوى دعيّ ابن دعيّة. فإن والدته سبيّة بنت سبيّة. وهو «بندوق» ولد سِفاح. وكانوا يأتون بهن من ڤينيسيا ولذلك سمّيت بالبندقية. فما هو دليلك؟ قال: كتاب الأنساب وقصّ أثر الأحساب. وما غاب عنه تجدونه في «الجَفْر». فقلنا: هل تؤمن بهما؟ فقال ما قال ممّا جعلنا نؤمن بأن العِرْقَ دسّاس. وكلّنا فيه سواسية لا فضل لعربي على أعجميّ إلاّ به. وقد يرجع سبب هذه الآفة المستديمة إلى تكرار مقتلة العيّارين أيّة مقتلة. أُولئك الذين لا من قحطان ولا من نزار، حتى لم يبقوا إلاّ على قيس ويمن إلى يومنا هذا.

وشتموا، بالطبع، الخِمار الأسود والبُرقع. وحجبوا زوجاتهم وبناتهم، فصاح شاعر حزام العفّة: مساكين.

فلما انفضّ مجلسنا انتحيت وإيّاه جانبًا وسألته عمّا كان يعنيه. قال: مساكين لأنهم، فيما يتظاهرون به من معاصرة، شأنهم شأن المقطوع من شجرة، أو الذي نسي قديمه فأضاع جديده. لست أدري – قال – السبب الذي جعلهم، في الجاهلية، يلقّبون ربيعة بن عامر بلقب «مسكين الدّارمي» فهو لم يكن مسكينًا، بل كان ساكن الجأش مؤمنًا بحريّة مسكنه حين قال:

«وإنّي امرؤ لا آلف البيت قاعداً
إلى جنب عرسي لا أُفارقها شبرا
ولا مقسم لا أبرح الدهر بيتها
لأجعله قبل الممات لها قبرا
إذا هي لم تحصن أمام قبابها
فليس بمنجيها بنائي لها قصرا».

قال: ولا يختلف السواد المسكين، في الرد على صرخة الفاروق – متى استعبدتُّم الناس وقد ولدتهم أُمّهاتهم أحرارًا – أن الناس يتألّفون من الذكور ومن الإِناث. ولا تلد الأحرار إلاّ الأُمّهات الأحرار.

ولم يكن السواد، في هذا الموقف، مسكينًا. بل كان، في قرفه الفطريّ من المُرائين والكذّابين، سكينًا تمزّق غشّهم وخداعهم. فهل رأيت مائدة أغنى وأشمل من «ألف ليلة وليلة» بما لذّ وطاب من سخرية شعبيّة متوارثة على أزواج ذوات الحجاب والصّون والعفاف؟ فإن الصحن الأساس، في هذه المأدبة، أو الخيط الذي لا ينقطع، في هذا البساط العجميّ، هو السخرية القتّالة بهؤلاء الذين يتوهّمون أن الإِنسان، أي إِنسان، يقصّ جناحي إرادته الحرّة بيديه، أو لا يتحيّن الفرصة للانتقام من سجّانه أو للهروب من القفص حتى ولو لم يكن أمامه من مهرب سوى إِشعال حريق.

لقد هام الأمير شهريار على وجهه حين وجد زوجه تخونه مع حارسها الذي أقامه عليها حارسًا. فمرّ، وهو مُتعب، بشجرة وارفة الظلال، قائمة على تلّة بالقرب من شاطئ بحر، فقعد يستريح في ظلّها. فاصطخب البحر بموجه. وإذا بمارد يشقّ الموج وهو يحمل صندوقًا ضخمًا. ففرّ الأمير شهريار إلى أعلى الشجرة مُختبئًا. فخرج المارد من البحر وأخذ يفتح الصندوق ويُخرج منه صندوقًا أصغر حجمًا من الأوّل حتى الصندوق السابع. ففتحه فخرجت منه صبية حسناء كأنها من حوريات الجِنان. فقعد تحت الشجرة والصبيّة إلى جانبه. ثم أخذ يناجيها أنه يعشقها حتى يغار عليها من نفسه. فحبسها في سابع صندوق في سابع بحر لا يلتقيها، على هذه النجوى، إلاّ مرة في شهر. ثم وضع رأسه على ركبتها ونام وهو يشخر شخير المُطمئنّين.

فرفعت الصبيّة رأسها وأشارت إلى الأمير، المُختبئ فوق الشجرة، أن ينزل أو توقظ المارد. فنزل وهو يرتجف كما لو أنه عصفور بلّله القطر. فأزاحت ركبتها من تحت رأس المارد وأشارت إلى الأمير أن يواقعها أو توقظ المارد. ففعل. فأشارت إلى خاتم ذهبي في إصبع يده أن يسحبه ويقدّمه إليها أو توقظ المارد. ففعل. فأخرجت صرّة كانت أخفتها في حزامها فإذا فيها خواتم كثيرة، قالت إن خاتم الأمير هو الخاتم السبعون.

وشأن كل خاتم مع صاحبه شأنها مع الأمير، وهذا الحمار يحسب أنه مارد. فمضى الأمير وفي قلبه بارقة من أمل أن يكون بنو الإنسان أوفر حظًا من بني الجان.

فمرّ بحقل والتقى فلاحًا يحرث الأرض، وقد حمل على ظهره صندوقًا أشبه بصندوق تلك الصبيّة. فطرح السلام عليه وقال: ولماذا لا تطرح هذا الصندوق عن ظهرك؟ قال: أضع زوجتي في الصندوق وأحملها في أثناء عملي خارج البيت حتى أطمئن على أنها مصون. فأبى الأمير إلاّ أن يرى الأمر بأُم عينه. فأنزل الفلاح الصندوق عن ظهره وفتحه. وأطلاّ على مَن فيه، فإذا زوجته مستلقية وإلى جانبها شاب تلاعبه ويلاعبها.

قال: وأنقى العرب، فطرة، البدويّ والبدويّة، فإياكم أن تستهزئوا بالبُرقع وبالخِمار فيصيبكم ما أصاب الحسن بن هانئ في خبره مع العبد الأسود، في «العقد الفريد»، وكان وقعته مع بدويّة.

– فما خبره مع البدويّة؟

قرأناه في مصدره، في نبعه الصافي، فوجدنا أننا لا نقوى على نشره، هنا، إلاّ ملوّثًا بالشطب وبالحذف كما كان يفعل كامل الكيلاني، ومن قبله الآباء الجزويت، صونًا لما أصابنا من لوثة الغش والخداع والخفر والحياء و «الأخلاق الحميدة».

قال: روى الحسن بن هانئ، قال: «حججت مع الفضل بن الربيع. حتى إذا كان ببلاد فزارة، وذلك إبّان الربيع، نزلنا منزلاً بإزاء ماء لبني تميم، ذا روض أريض ونبت غريض تخضع لبهجته الزرابيّ المبثوثة، والنمارق المصفوفة. فقرّت بنضرتها العيون، وارتاحت إلى حسنها القلوب وانفرجت ببهائها الصدور.

قال: فلمّا انتهينا إلى أوائلها إذا بخباء على بابه جارية متبرقعة ترنو بطَرْف مريض الجفون وَسْنان النظر.. فقلت لزميلي: اسْتَنطِقها. قال: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قلت: استسقها ماء. فقالت: نِعم ونُعمى عين وإن نزلتم ففي الرُّحب والسعة. ثم مضت تتهادى كأنها خُوط بانٍ أو قضيب خيزران. فراعني ما رأيت منها. ثم أتت بالماء فشربتُ منه وصببتُ باقيَهُ على يدي. ثم قلت: وصاحبي أيضًا عطشان. فأخذت الإناء فذهبت. فقلت لصاحبي: مَن الذي يقول:

«إذا بارك الله في مَلْبَسٍ
فلا بارك الله في البُرقُعِ
يريك عيون الدُمى غِرّةً
ويكشف عن منظر أشنعِ

«قال: وسمِعَت كلامي. فأتت وقد نزعت البُرقع ولبست خمارًا أسود وهي تقول:

« الا حـيٌّ رَكْـبَـيْ مـعـشـر قـد أراهـمـا
أطـالا ولمـا يـعـرفـا مـبـتـغـاهُـمـا
« هـل اسـتـسـقـيـا مـاءً عـلـى غـيـر ظَـمْـأَةٍ
لـيـسـتـسـقـيـا، بـالـلَّـحـظ، مِـمَّـن سـقـاهـمـا؟
« فشبَّهت كلامها بعقد دُرٍّ وَهَى فانتثر وبنغمة عذبة رقيقة رخيمة.. مع وجه يظلم لنوره ضياء العقول، وتتلف في روعته مُهَج النفوس..
« فلم أتمالك أن سجدت وخَرَرْتُ ساجدًا. فأطلتُ من غير تسبيح. فقالت: ارفع رأسك غير مأجور. ولا تذمّ، من بعدها، برقعًا. فلربما انكشف عمّا يصرف الكَرى ويحلّ القوى من غير بلوغ إرادة ولا دَرَكِ طَلِبَة ولا قضاء وطَر. ليس إلاّ للحين المجلوب والقدر المكتوب والأمل الكذوب.
« فبقيتُ، والله، معقول اللسان عن الجواب، حيران لا أهتدي لصواب. فالتفت إليّ صاحبي فقال لما رأى هلعي، كالمسلّي لي عن بعض ما أذهلني: ما هذه الخفّة لوجه برقت لك منه بارقة لا تدري ما تحته؟ أما سمعت قول ذي الرِّمَّة:
« عـلـى وجـه مـيٍّ مـسـحـة مـن مـلاحـةٍ
وتحـت الـثـيـاب الـعـار لـو كـان بـاديـا؟
« فقالت: أما ما ذهبت إليه، لا أبالك، فلا!
« ثم رفعت ثيابها حتى بلغت به نحرها وجاوزت منكبيها،

فإذا قضيب فضّة قد شيب بماء الذهب يهتزّ على مثل كثيب النقا، وصدرٍ كالوذيلة عليه كالرمّانتين، وخصر لو رُمْتَ عقده لانعقد، مطويّ الاندماج على كَفَل رجراج وسُرَّة مستديرة يقصر فهمي عن بلوغ نعتها. من تحتها أرنبٌ جاثم، أو جبهة أسد خادر. وفخذان لفّاوان، وساقان خَدَلَّجان يخرسان الخلاخيل. وقدمان كأنهما لسانان. ثم قالت: أعارًا ترى، لا أبالك؟ قلت: لا، والله، ولكن سبب القدر المُتاح ومقرِّبي من الموت الذبَّاح..». ولم ينته الأمر على ذلك.

- وخبره مع العبد الأسود؟

قال: هو ذلك.

أما عبد الكريم أبو العباس فقد عاد إلى البلاد حين أدرك، في باطن باطنه، أن أمره مع «اخطيّة» لم ينته، ولن ينتهي.

(٣)

إخطِيِّة

أدرك عبد الكريم أبو العباس هذه الحقيقة منذ أن رفضت طفلته، التي وأدتها أُمّها، إلاّ أن تسمّي فلسطين باسم «إزرايل».

أما الذي أفقده بقيّة من حذر، ومن حيلة، ومن رغبة في تحايل، فهو هذه المفاجأة التي فاجأه بها المحقّقون حين أبلغوه بخبر الفتاة التي ظهرت في شارع «هحالوتس» تحمل طفلتها، وتجري حافية القدمين، وحاسرة الرأس. وقالوا له إنه شوهد وهو يجري وراءها.

– اخطيّة.

رمى اسمها في وجوه المحقّقين وهو مضطرب جداً، ومندهش جداً. فظنّ المحققون به الانهيار، وحسبوا أنهم وقعوا على الخيط الذي سيخرجهم من دياميس هذه القضية إلى نور الحقيقة.

فكيف سيقنعهم بأن ما يدّعون أنهم شاهدوه، عنها وعنه، ما هو إلاّ أضغاث أحلام – أحلامه؟! وهذا هو الأمر الخارق الذي لو اخترق دماغه لأصابه بالجنون.

فهو لم يشاهدها ولم يجرِ وراءها. ولكنه تمنّى لو أن ذلك قد حدث. وكان، حين أغمض عينيه تمويهًا، قد رآها فيما يراه النائم من خيالات. ولكنه لم يكن نائمًا.

كان يفكّر بها في قرارة نفسه. بل كان البحث عن مصير «اخطيّة» هو الدافع الباطني الذي دفعه إلى ركوب المخاطر والعودة. ولكنه لم يجرؤ على البوح، بينه وبين نفسه، بدخيلة نفسه.

فكيف اهتدى إليها هؤلاء الناس – هؤلاء الناس؟! بل قالوا إن عددًا منهم شاهدها، وقالوا: حيّة تسعى؟! هل انتزعوها من صدره كما انتزع الخالق الرحمن من صدر آدم ضلعًا فإذا هي «اخطيّة»؟!

«وبنى الرب الإله الضلع، التي أخذها من آدم، امرأةً. وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي».

فهل يحضرونها إليّ كما أحضر الرب الإله حواء إلى آدم؟ أَوَلا يقوى شعب الله المختار إلاّ على مشاهدة خلق الله؟!

اخطيّة.

عظم من عظامي ولحم من لحمي.

أم تكون خرجت إليهم، من صدري، كما خرجت مينيرڤا من إصبع جوبتر لتهديهم إلى المعرفة؟!

الخطيّة.

هل ظهرت حقًا، بعظمي وبلحمي، في الشارع تجري بين السيارات المزدحمة فيما كان هو مُغمض العينين، تناومًا، فراحت عليه في اللحظة التي كان يتمنّى فيها أن تظهر له ويلوم نفسه على تعاسته وعلى تعاستها به؟

أبكي عليك، يا عبد الكريم، يا الذي قضيت أحلى سني حياتك وأنت تبكي عليها بكاءً داخليًا – دمعًا ينزف من القلب على القلب – كالدمَّل ذي الرأس الداخلي. وكنت تبكي على نفسك.

قالوا لك إن الناس، في الشارع، شاهدوك وأنت تركض في الشارع وراءها.

– أنا؟! يا ليت!

كانت هواجسك تركض وراءها. فهل كنت تركض وراء هواجسك دون أن تدري؟

ركضْتَ وراءها، يا «أبّاس»، منذ أن ركضت هاربًا من الأمريكيتين – الزوجة وابنتها. بل ركضت وراءها منذ أن قَوّسَتْ قامتك لتعصر، من شدّة الألم، مكان الضلع المنزوعة من صدرك – عظمًا من عظمك ولحمًا من لحمك – فأصبحت كما «البوميرانج»، سلاح التسمانيين المنقرضين، تنطلق في الفضاء، تلف وتدور: شارع عباس – طرابلس – بيروت –

السعودية – نيويورك – ديترويت – شارع عباس. تعود إلى المنزل الأوّل. تعود إلى الحبيب الأوّل.

فإذا اعترض «البوميرانج»، في انطلاقته، معترض – كيف يكون الفعل وردّ الفعل؟

فكيف ستوضّح الأمر للمحقّقين؟

أيّ أمر، يا عبد الكريم؟

هل حقًا، يا عبد الكريم، كنت تركض وراءها لتمسك بها فلا تخلّي عنها أبدًا أم كنت يا عبد الكريم تركض هاربًا منها؟

– قُل الحقيقة، يا عبد الكريم.

– الحقيقة؟ لم أجرؤ على البوح بها أمام نفسي، بيني وبين نفسي، فكيف أبوح بها أمامهم؟ ما شأنهم؟

– ما شأنهم؟

قد يكون عبد الكريم أبو العباس ناجى نفسه بهذه المناجاة قبل أن يُفرج، أمام المحققين، عن مكنون صدره. وقد يكون اعترف بقصته من غير هذه المناجاة. وقد يكون عاجزًا عنها.

فما شأني، إذًا، في أن أسترسل حتى أعتاب شأنهم؟

– قفي، أيّتها المناجاة، إذًا.

«فلمّا شربناها ودبّ دبيبها

إلى موقع الأسرار قلنا لها: قفي».

شربنا الماضي، سويةً، حتى الثمالة. ونجدنا ندبّ إلى أسرار

المستقبل دبيب الشمالي. لقد استيقظنا. فما شأنهم لا يستيقظون؟ فهل هذا هو شأنهم؟ وحدهم؟!

قفي!

أما عبد الكريم فلم يقف، دون الاعتراف، طويلاً.

وذلك، كما نشروا في الصحف، منذ أن واجهوه بمحتويات صندوق «الطوفي» القديم الذي كان يحمله حين ألقوا القبض عليه.

أما ذوو الشأن من المحقّقين فلم يذيعوا على الصحف من اعترافاته سوى أنه ماضٍ، وأنه هارب من جريمة أخلاقيّة ارتكبها في زمن الانتداب، «أيام العرب»، وكان عقد أواصر علاقة غير شرعيّة بشخصية مشبوهة في إسرائيل عاد الآن لكي يصل ما انقطع منها وليحييها.

وظهرت، في صحف تلك الأيام، حكايات عن صندوق كان مخفيًا في فتحة من فتحات تسريب مياه الأمطار، في سور مدرسة الراهبات العالي الذي يفصل ساحة المدرسة وأبنيتها الإيطالية الفاتيكانيّة عن شارع عباس الشبيه، لولا أقماطه الإسفلتيّة، بمرتبة من مراتب الحصى والتراب التي كان جدّي يسوّيها بين صفّ من أشتال الدوالي والصفّ الذي يعلوه منها في كرمه العالي في القرية العاصمة. فتكون مدرسة الراهبات أشبه بالعلّية المُشرفة على الكرم. وأمّا السور،

بفتحاته ذات الشفاه المنفرجة عن توقع أبَديّ لما هو آتٍ، أو عائد، فيكون أشبه ببرج من أبراج الحمام الزاجل – حمام قد يكون فرّ مذعوراً من ضجّة غير مألوفة، طلقات رصاص، مثلاً. وها هو قد حطّ على سطوح المنازل القريبة، أو على سطوح المنازل التي أُبعد منها، يمد أعناقه الصغيرة يصيخ السمع ويتنصّت أملاً في أن تذوب الضجّة، وتتلاشى، ويخفت رجع الصدى حتى لا يعود، فيعود.

كان عبد الكريم الأمريكاني – وهذا بعض ما جاء في تلك الحكايات – يتبادل الرسائل طول أربعين عامًا، عبر فتحة من فتحات ذلك السور، مع إحدى المخرّبات مِمَّن قررت الجامعة العربية، في زمن أمينها العام عزام باشا، إبقاءهن في إسرائيل للتخريب على الدولة الناشئة من داخلها، ولتفريخ الأجانب والسرطان.

وقالوا إن عبد الكريم اضطُرَّ، حين ووجه بالحقائق الدامغة، إلى الاعتراف باسم هذه المُخرّبة، وأن اسمها «اخطيّة». وقالوا إن ترجمته إلى العبرية هي «حِطْ». وهو، أيضًا، من «خطيئة». وهو من الأسماء المألوفة لدى اليهود أيضًا. ومنهم من دخل إلى الكنيست وخرج. ومنهم من دخل إلى سلك القضاء ولم يخرج. ومنهم من أدخلته خطيئته إلى السجن. ومنهم من لم تدخله خطيئته إلى السجن.

كنت، وأبناء جيلي الباقين في حيفا، نعرف عبد الكريم في الصغر. كان جاري. فلمّا وقعت الواقعة التي لم تُبقِ في راسنا عقل، ومسحت من الذاكرة الذكريات ومن عالمنا المعالم، نسيناه. فلمّا تردّد اسمه في الصحف، وأنه من سكان شارع عباس في الأصل، تظاهرت أمام زملائي الشبّان في الجريدة بأنني تذكّرته خوفًا من أن يظنّوا الظنون بأصلي وبعقلي.

فلمّا أُشيع أنّه ذو ماض تظاهرتُ بالابتسام ابتسامة ذات ماضٍ يتستّر على ماضٍ ذي ماضٍ.

وقعدت مع نفسي أُسائلها: أما كان يحقّ لنا ما يحقّ للأولاد في كل زمان وفي كل مكان؟ فكيف وقد كانت معالم شارعنا، أيضًا، في أول طلعاتها - كثة الأجمات صافية السحنات، تعرق صخورها بالينابيع وتحمرّ وجناتها، خفرًا طبيعيًا، بالنرجس، وعصا الراعي، وبغزل البنات، وبالبنات الغزالات؟

لم يختلف عبد الكريم، في ذلك الزمان، عنّا إلاّ في أنه سبقنا في النزول مع أُخوته إلى العمل وطلب الرزق صغيرًا. كان، من ذلك الزمن، عاملاً ابن عامل وأخا عمّال. وهو ممّا ندر في حارتنا حيث لم تخلُ عائلة من والد بقّال أو من أخ كبير موظّف. وكانوا ذوي صلات بالقرية التي جاءوا إلى المدينة منها. وكان بعضهم يتّكئ على هذه الصلات اتّكاءً ثقيلاً

أو خفيفًا. وذلك بحسب قدرة المتّكإ عليه. غير أنهم كانوا، جميعًا، يُخفون هذه الصلات إمعانًا في التمدّن أو إصرارًا على أصالة حيفاويّتهم، أبًّا عن جَدّ. وهو صحيح أيضًا.

سوى عائلة عبد الكريم. فقد كانت، كما نقول الآن، «بروليتاريّة» أصيلة. فحين كانوا يسلسلون شجرتها العائلية كانوا يتوقّفون عند ساحة البرج الذي بناه ظاهر العمر ويقولون: التجأ جدودنا إليه نجاة من مذبحة حيفا القديمة التي اقترفها الصليبيّون. وكانوا الناجين الوحيدين من المذبحة.

وكنّا، في ذلك الزمن، نهاب «بروليتارية» آل عبد الكريم الخالصة من غير أن ندرك كنهها. وكان عبد الكريم يستغل تهيّبنا فيمعن في التظاهر بالاسترجال قبل أوانه. وكان من مظاهر استرجاله ادّعاؤه سماع ضباح الثعالب الجائعة، في الليل، وهي تقترب من خمّ الدجاج الذي أقاموه في محاذاة بيتهم، فكان يخرج إليها ليطردها غير هيَّاب أو وَجِل.

كنّا، يا عبدو، نتظاهر بأننا نصدّقك. وكنّا، بذلك، نتستّر على أحوالنا. كانت المراحيض خارج البيوت. فكنّا نُضْطَرُّ إلى الخروج في الظلام لقضاء الحاجة. وكان بعضنا يعملها في «الأرضيّة». وبعضنا في فراشه، ويتمارض ويتغيّب عن المدرسة. وكنّا نستغيبه.

وكانت بنات آوى لا تفكّ عنّا في الليالي المُقمرة. ولم

تكن تهابنا. وكنّا نسمع عواءها قادمًا من وراء الأبواب المُقفلة. وكان الليل، في حارتنا، يصمت حتى نسمع دقّات قلوبنا وخشخشة أوراق علّيقة تململ تحتها قنفد. فنحسبها تخشخش تحت أقدامنا. كان الليل، في صمته المُطبق، شفافًا وموصلاً جيدًا للصوت.

وكان موصلاً جيّدًا للضوء، أيضًا. هل تذكر ضوء القمر في الليالي المُقمرة، كيف كنّا نقرأ عليه المحفوظات؟ فهل كنت واحدًا من «القمريين» يا عبدو؟

هل كنت واحدًا منّا، يا عبد الكريم، حين كنّا ننزل إلى البحر، مشيًا على الأقدام، قُبيل طلوع الفجر - أو في الفجر الكاذب - ونعود، مشيًا على الأقدام، طالعين إلى بيوتنا مع طلوع الفجر؟ لن تجد حيفاويًا أصيلاً إلاّ استعمل كلمة «نزل» وكلمة «طلع»، كما استعملناهما منذ تلك الأيام. فالنزول هو الخروج من البيت. والطلوع هو العودة إلى البيت: نزل إلى البحر ونزل إلى المدرسة ونزل إلى العمل. وطلع إلى البيت. حيفا بنت الكرمل. وادي النسناس، المنخفض، من وديان الكرمل. وشاطئ البحر هو ساحل الكرمل. والكرمل هو كرم الله. والكرمل كريم لا تبخل أدغاله عن ستر العاشقين حتى ولو جاءوا من جميع أنحاء فلسطين - وكانوا يجيئون - فلا يملأون كوزه السخيّ.

ما كان أقصر الطريق بين شارع عباس وشاطئ البحر. وما أوسع الدنيا في ذلك الزمن. الكرمل كله لنا والبحر. حتى «جنينة عبّاس» كانت حلالاً علينا. دنيانا كلها كانت حلالاً علينا: السهل والجبل. البحر والبر والموارس بينهما. ما كنّا نحمل معنا سوى رغيف وقطعة من الجبن. وكانت الوالدة، إذا ما استيقظت، تلفّ لنا «عروسة» من الخبز الرقيق المُغمس بالزيت وبالملح، أحيانًا. أما الخيار والفقّوس فحلال علينا في مقاثيه. فإذا عطشنا استبطخنا.

هل تذكر الولد العفريت الذي اسمه فريد؟ لم يكن فريدًا في ذوقه. ما كان يطيب لنا ثمر اللوز الأخضر، في أرض والده، إلاّ سرقة. وما كان يطيب له إلاّ أن يكون قائدنا ودليلنا في الغارات على حدائق والده. فلمّا أمعنّا في استباحتها كمن لنا والده في مكمن لم يقع فيه سوى فريد. فلم يشِ بنا. فصاح به والده: ولكنه حلال لك. فقال: وأصحابي. قال: حلال لكم جميعًا.

وأيّنا، يا عبد الكريم، كان لوالده العاجز دكان يبيع فيه البرتقال واليوسف أفندي وقطوف الدوالي، في مواسمها، وبُقول البرّ من عِلْتٍ وخبّيزة ومُقْرة وحْوِرّة في مواسمها؟ فكنّا لا نستذوق البرتقال إلاّ سرقة من دكانه. فكان ابنه يلهيه بشأن من شؤون العائلة. ويكون هذا الشأن مختلفًا. فنمضي نحن

نخطف حبّات البرتقال من بسطة أمام دكانه، خطفًا لذيذًا.

كانت الدنيا حلالاً، وكان العيش فيها حلالاً. ولم نكن نعرف من الحرام ما نتجنَّبه سوى النميمة. وكنّا نتجنّبها مهما غلا الثمن.

فبأي ماضٍ يهددونك بالكشف عنه، يا عبد الكريم؟ بما يسمّونه، تعسُّفًا، بالحب؟ هل يعرفونه؟

لو كانوا يعرفونه لأبقوا دغلاً بكرًا نلعب فيه الغمّيضة. أو غيضة صنوبريّة نسترق الحب إليها، أو سطح بيت، خلواً من السواري والصهاريج، كنّا نتبادل فيه نقش أسمائنا المختارة، زوجين زوجين، ذكرًا وأُنثى كما خلقهما ربهما الخالق.

لم يكن في الحبّ الذي عرفناه من عيب سوى سذاجة تطرح سذاجة بني عذرة أجمعين في زوايا النسيان.

لم يَطِبْ لنا تعاطي الحبّ إلاّ كما طاب لنا اللوز والبرتقال، الحلال علينا في كرومنا ودكاكيننا، سرقةً.

كانت الجيرة حلالاً، والجار من أهل البيت. وكان الجار ينتسب إلى جاره. ولم يكن إعداد عجينة حلويات العيد وقفًا على النساء والصبايا، بل كان مشاعًا على الصِّبْيَة أيضًا. وكنّا نتلامس عفو الخاطر وعفو الموقع المتعمّد وتصطدم نظراتنا في حوادث طرق مُميتة تحبس الأنفاس وتصرع الجانبين. وكانت عيون صبايانا مؤهلة لهذا الأمر وراثة. الرمش كتوم

اللون، والبؤبؤ عسلي القربى، والبسمة بيننا شفرة. وأما فم العينين فمتاهة بين الجفاء والعطاء تتوه فيها ولا تخرج منها سليمًا. وهو مما لا يتقنه سوى صبايانا وقد مضى وانقضى وذهب منذ أن «ذهب العرب».

وهذا ما كنّا نسمّيه بالحبّ. وكان حبًّا جمًّا.

وكنّا نجد اسمنا محفوراً على سطح البيت. فنحفر إلى جانبه اسمها. فإذا التقينا في بيتها، أو التقينا في بيتنا، أخلصنا في صون هذا السر حتى تختلط علينا الأسماء المختارة، ونشكّ في صحة اهتدائنا إلى هُوية الحفّار، فتأخذ بنا الظنون كل مأخذ. ويكون والدها موجوداً في هذا التيه، أحيانًا. ويُمعن النظر في الفضاء أمامه، ونكون بينه وبين هذا الفضاء، فنحسب أنه طلع على السطح.

ولـمّا كانت الحاجة، حتى في ذلك الزمن البعيد، أُمّ الاختراع، فقد اهتدينا إلى عناوين أُخرى أثبت في صون السرّ وأمنع على الالتباس في الأسماء.

هل تذكر، يا عبد الكريم، الشيخ المتسوّل العجوز الذي كان آباؤنا يحسبونه ضريراً؟ كان يقتعد نتوءاً تحت صخرة في قاعدة سور الراهبات. ظلّ يتّقي شرورنا حتى أصبحنا أصدقاء. ففتح لنا عينيه وصدره وعُبَّه. فكنّا نتبادل رسائل الغرام عَبْرَهُ. إلاّ أننا افتقدناه، يومًا، قبل أن نفتقد صبانا و«أيام العرب».

تيتّمنا منه. ولكن لم نعدم الحيلة.

لا أذكر كيف اهتدينا إلى العنوان الجديد ومن كان أوّلنا في الاهتداء إليه. غير أن الأمر المؤكّد هو أن جيلنا هو أوّل من اهتدى إليه لأن شارع عبّاس لم يعرف في مهده صبيًّا سوانا.

كان هذا العنوان الجديد هو فتحة من فتحات سور الراهبات اختار كل زوجين منّا فتحة فيه في متناول أيديهما. وكنّا نضع في الفتحة صندوقًا صغيرًا ممّا كانت تُباع فيه الشوكولاطة، أو «الطوفي»، في «زمن العرب». وكنّا نتطارح آيات الحب عبره – رسائل نَعَفَتْها أو جرفتها الأمطار والسيول أو عبث بها مرور الزمن على الذاكرة.

وقد تكون موجودة حتى الآن، في الفتحات العُليا من السور، بعد أن حفرت مدنيةُ الإسفلت، في عمق السور، شارعًا أرادوه مستويًا فأبعد الفتحات عن متناول الأيدي حتى أصبحت أشبه بأعشاش الحمام، زوجين زوجين، كانت تلتقي فيها قلوبنا على السرقة الحلال، كاللوز والبرتقال واليوسف أفندي، طيّ صندوق من الشوكولاطة أو «الطوفي».

فهل أمسكوا بك، يا عبد الكريم، متلبّسًا بهذا الصندوق بعد أكثر من ثلاثين عامًا من الانتظار فوق السطوح الأبعد من القريبة؟

هل وجدت العشّ سليمًا غير منعوف؟

هل كنت أنت، إذًا، صاحب اخطيّة؟

أنت، يا عبد الكريم؟!

هل، حقًا، اعترفت أمامهم بأنك والد الطفل الذي ولدته «اخطيّة» سِفاحًا؟

أنت، يا عبد الكريم؟!

وبعد هذا العمر الطويل؟!

ما هذا الهذيان؟ أحفظ، عن ظهر قلب، ما قيل عن الخطيّة وأنها ستُلاحق الخاطئ حتى تكشفه. ولكن خطيئة اخطيّة وقعت قبل نصف قرن.

فهل ظلّت اخطيّة لا تُنجب البنات، طول هذا العمر، إلاّ سِفاحًا فلا يُنجبن إلاّ البنات وإلاّ سفاحًا جاريات في الشوارع حافيات معفّرات، منعوفات الشعر، عاريات مشحّرات؟!

ما هذا الهذيان؟

هل من الممكن، يا عبد الكريم، أن تكون التقيت اخطيّة، بعد مضي نصف قرن، أو إحدى بناتها؟

عمَّ جئت تبحث، يا «أباس»؟ عن اخطيّة الأُولى – الخطيئة الأُولى؟

ادّعوا أنهم ألقوا القبض عليك وفي يدك صندوق «طوفي» صغير مليء بقصاصات صغيرة من الورق. فهل ظلّت اخطيّة

تُراسلك، عامًا عامًا، دون من مجيب؟

هل وقفت، أمام السور، خمسة أيام بلياليها - كما قيل - منتظرًا أن تظهر صاحبة الرسائل غير المُجابة؟

فماذا كنت ستقول لها لو أنها جاءتك - اخطيّة الأُولى؟

هل أنت اخطيّة الأُولى أم الثانية أم الثالثة أم.. العاشرة؟

ولماذا أنت من دوننا جميعًا؟!

فمن منّا لا يتذكّر اخطيّة ولم يعشقها حتى التلف؟

كان بيت اخطيّة مُشرفًا على الدرجات الصخريّة التي كنّا ننزل فيها لنسرق اللوز من أرض والد فريد، أو لننزل إلى البحر قبل طلوع الفجر.

كانت اخطيّة في العاشرة من عمرها حين قَفَزَتْ من شرفة بيتها أو وقعت من الشرفة فوق صخرة من صخور الدرجات الصخريّة.

أخبرتنا بأنك كنت مارًّا من هناك في تلك اللحظة. قلت: قدري. حملتها إلى باب دارها بين يديك وهي تتوجّع ولا تشكو. ففتحوا الباب وأخذوها منك في جفوة كما لو أنك المسؤول عن وقوعها على الصخرة، فيما كان عليك أن تسبق الوقعة وأن تمد يديك فتقع بين يديك سالمة.

حسدناك، على الرغم من هذا التلكّؤ، على هذا اللقاء. وأدمنا الرواح والمجيء أمام شرفة بيتها لعلّنا نحظى، كما

حظيت، بقفزة من قفزاتها أو بوقعة من وقعاتها ونكون أوفر حظًّا منك وتكون أوفر حظًّا بنا.

فوقعنا، الواحد منّا بينه وبين نفسه، في حُبِّها. وأوحشتنا وحشة بيتها الذي أغلقوه على أنفسهم دوننا ودون سكان الحي أجمعين. وهو أمر فريد وغريب في العلاقات بين سكان هذا الحي.

لولاك، يا عبد الكريم. ما علمنا بأن اسمها الخطيّة. فهل، حقًا، هذا هو اسمها؟

(٤)

سروة

أسدلوا الستائر على شرفة بيتهم ليلاً ونهارًا. فإذا اهتزّت الستائر علمنا أن اخطيّة تقف وراءها. فإذا اهتزّت الستارة اهتزازًا مُريبًا رنَونا إليها فتلتقي عيوننا على عتب. وكانت اخطيّة تبعث إلينا، بعينيها، رسائل في الشجاعة. أُحبكم – كانت عيناها تقولان لنا. فإذا اشتدّت البلاهة على نظراتنا، فوق أفواه مشدوهة ببلاهة أشدّ منها، فتحت الستائر على رحبها عنوة وظهرت أمامنا: سمراء ملتهبة، كما النار، في حلّة حمراء كما النار – ثوب من الحرير الأحمر اللعوب وقلادة حول عنقها من العقيق الأحمر. فأنطقت واحدًا منّا شعرًا لا أذكر الآن سوى مطلعه:

«هل رأيت النار في حلّة نار
أم شربت الخمر في كأس محار؟»

فهل تحسب، يا عبد الكريم، أنك الوحيد الذي قذفَتْهُ، حينئذ، برسالة مشبوكة بمشط مصنوع من عظم حيوان برّي أو من خشب سنديانة؟

وكان مشطها يفوح برائحة بيتيّة، رائحة بيوتنا عشيّة عيد

حين تكون صبايا الحارة رائحات غاديات يتعثّرن بنا.

أو أنك الوحيد الذي تبادلت الرسائل معها عبر المتسوّل المتظاهر بالعمى أو عبر عُشّ في برج الحمام الزاجل، في صندوق شوكولاطة صغير؟

أنت أهبل، يا عبدو؟ وما أهبل منك إلاّ ضباط الشرطة المحقّقون، على من فيهم من مستشرقين، ومستعربين، ومستشارين، ضاقت ألبابهم عن أن يعرفوا عنّا ما أنكروه على أنفسهم من ضعف إنساني أقوى من صبر أيوب.

اختفت اخطيّة حوالي السنة. ولم تعد تظهر لنا أو لغيرنا فوق شرفتها.

وفجأة عادت وظهرت وهي تحمل طفلة بين يديها وسحابة من حزن في عينيها.

عادت اخطيّة تنادينا بعينيها الحزينتين.

فاستبدّت بنا الظنون، وسمعنا خشخشة. وعادت الثعالب تعوي، في الليل، على عتبات بيوتنا. فلم نعد نبادلها النظرات بل نطأطئ الرؤوس خشية من خشخشة دقّات قلوبنا، ونجري مسرعين هربًا من عواء في آذاننا أخرق. أحرقنا رسائلها. ودفنّا أمشاطها السنديانيّة تحت السرّيس والقندول. ولم نعد نذكر اسمها في أحاديثنا حتى كأنها لم تكن أو كأنها ممّا يخرج عن مجال الكلام - لحن حرام على الدندنة أو صفير لا تقوى

شفاهنا المشدوهة على إخراج روحه لئلا تخرج أرواحنا معه.

أنت أهبل، يا عبدو، وما أهبل منك سوى هذا الهبل الشامل.

فكلّنا شعر بمثل ما شعرت من همّ مُمِضّ، مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطّه السيل من علٍ، على قلوبنا من أعالي الكرمل، أو من موجة بحر عاتية طلعت على شارعنا طلوع الموت الفُجائي ولما تنحسرْ. وذلك حين ترامت إلى مسامعنا خشخشة أو عواء عن فضيحة أَلـمَّت بهذه الفتاة وعن أن اخطيّة ترفض الاستجابة لتوسّلات والدتها، ولضربات والدها وأخواتها، وتصرّ على كتمان اسم المُذنب.

فمن يكون؟

أيّ منّا لم يشعر، في تلك الأيام، أنه هو؟

أيّ منّا لم يشعر، في تلك الأيام، بأنه جبان ورعديد لأنه لم يجرؤ على قرع باب بيتها، وعلى إبلاغ أبويها بأنه والد الطفلة، مع علمه بأنه ليس والدها، ولكن الواجب يدعوه إلى ذلك؟

فهل تشيح بوجهك قائلاً: هذه ليست أُختي، لو رأيت يا عبد الله في طريقك رجلاً «قد الجبل» يعتدي على طفلة؟

أما اخطيّة فكانت أُختك، يا عبد الله. فكيف لم تهرع إلى إغاثة مليحة سطا عليها غول؟

أيّ منّا، يا عبد الكريم، لم يغضّ الطرف عنها ويُشِحْ بوجهه خوفًا من أن تعترف باسمه؟

ولكنها لم تعترف. ولن تعترف.

إن اخطيّة من تلك الظواهر الكونيّة التي وُجدت لكي يعترف الناس بها لا أن تعترف بهم. تبوح بأسرارك لها فلا تبوح بأسرارك: دغلة في الكرمل استعصت على إسفلت. علّيقة مجدورة في جنينة عبّاس. باحة منسيّة وراء فرن وادي النسناس. حائط مبكى في شارع العراق. صخرة بعيدة في تل السمك. نصب قبر منسيّ في حيفا العتيقة. مكتب أخي في شارع الملوك وغرفة وُلدتُ فيها وفتحوا جدارها دكانًا في حسبة وادي النسناس، وأعشاش منعوفة في برج مدرسة الراهبات.

لا تذهب عنكم بل تذهبون عنها. ولا يأخذونها منكم بل يأخذونكم منها. يرحلون عنها ولا يعودون. أما هي فلا تعود لأنها لا ترحل.

غير أن الذي أذهلنا ولا نعرف له تفسيرًا، حتى الآن، هو ما شهد به أكثر من عابر سبيل وسائق سيّارة يهودي أنه شاهد تلك المرأة، وفي حضنها طفلة، تجري بين السيارات المُزدحمة. وأنهم شاهدوا ذلك الرجل النحيل الطويل القامة، كأنه السَّروة، يسري وراءها سريان لسان من نار فتنفر منه هاربة

لا تلوي على نداءاته.

كان يناديها. وشهدوا بأنهم سمعوه يناديها. وقالوا إن صوته اخترق قلوبهم وقطّع نياطها. فما شأن خيالهم في هذا الأمر الخاصّ بنا خصوصيّة تأنيب الضمير؟

وكان جاء في الصحف، في مستهلّ التحقيق مع عبد الكريم، أنهم وجدوا، في صندوق «الطوفي» في العشّ في برج الحمام الزاجل، أكثر من أربعين رسالة موجّهة منها إلى «عبيدو»: رسالة واحدة في العام الواحد، من غير انقطاع منها عن هذا الأمر ودون من جواب منه حتى يوم هذا اللقاء - إلقاء القبض عليه.

فهل أثارت هذه الواقعة شجونهم؟

أي شجون؟

لم يبقَ أمامنا من طريق سوى أن نحدس ونخمّن، ونضرب أخماسًا بأسداس. فبعد أن ارتوت الصحافة من دمنا، شأنها معنا حتى هذا اليوم، تناست قضية عبد الكريم جملةً وتفصيلاً. وكل ما استطاع زميلنا الشاب العصري أن يجمعه من معلومات عن مصيره هو أن السلطات المختصّة أبعدت عبد الكريم عن البلاد وأعادته إلى الولايات المتحدة، مخفورًا حتى درج الطائرة، بعد أن أبلغته بقرارها منع دخوله إلى البلاد مرّة أُخرى. فإذا حاول الأمر، مرّة ثانية، حبسته حتى يموت في الحبس.

وجاءنا، فيما بعد، وهو مذهول بخبر أذهلنا وأقعدني في مأتم الذاكرة. قال: هل تعرفون من هو «الرجل البندول»؟ قال: إنه شقيقه البكر.

– الرجل البندول؟

– الشبح الصامت الذي يروح ويجيء في حركة رتيبة، في هلال من دائرة، أشبه بحركة بندول الساعة. ولكنه لا يهلّ على حوارينا إلاّ مرّتين في اليوم: في ساعة ثابتة من الصباح. وفي ساعة ثابتة من العصر. وكانت النسوة يعتمدن ظهوره، مجيئًا وإيابًا، لتعيين مضي الساعات الرتيب الذي ازداد تثاقلاً منذ قيام هذه الدولة.

وهو «شخص» وحيد شوهد يدخل بيتًا قديمًا من البيوت القديمة القائمة في شارع عباس. فاستنبطنا أنه بيته. لا يزور ولا يُزار. لا يتكلّم ولا يطرح السلام فلا يُسلَّم عليه. وسلّمنا بهذا الأمر منذ أن عُدنا ندبّ الحياة من جديد في بيوت ودكاكين كانت مساقط رؤوسنا، وموارد أرزاق أجدادنا، فإذا البيت قد هدموا جداره فأصبح دكانًا. وأصبح دكان بيع الخضار مَحْلَقَة. ذهب عطا الدلول مع الذاهبين الأولين وأصبحت محلقته بقالة. الفرن الأبيض أصبح كراجًا. وأما فرن وادي النسناس فورثه شبّان ينادون على الواحد منّا بيا عمّي. وأعمامهم، هؤلاء، لا يعرفونهم. وسلّمنا بهذه الأُمور

كلها كما سلَّم قُسّ بن ساعدة الإِيادي بالحقيقة وبربّها.

وسلّمنا بظاهرة «الرجل البندول». وبأنه غريب الأطوار. وبأن لا طور له سوى طور واحد. فهو ينزل في الصباح ليحلق ذقنه لدى حلاّق في وادي النسناس. ثم يختار حاجة يومه من طعام، ثم يعود أدراجه إِلى شارع عباس.

ثم نشاهده ينزل، في ساعة ثابتة من ساعات العصر، إِلى وادي النسناس مرّة أُخرى. يهبط في شارع الجبل ثم يعرج، يمينًا، على زقاق الحريري فالوادي يصعد فيه حتى مطابع «الاتّحاد» ودكان الجمّال وملحمة الشفاعمري، ثم يلتفّ، يسارًا، على شارع قيسارية ويمضي فيه حتى يعبر بيت أبي الياس فيتحوّل، يمينًا، مخترقًا الزقاق المُفضي إِلى شارع «المُخلّص» يسير فيه حتى آخره، مُعرّجًا على شارع «شبتاي ليفي» عائدًا، صعدًا، إِلى شارع عباس فإِلى بيته.

طويل القامة، أطول قامة من شقيقه عبد الكريم الأمريكاني. نحيل كأنه الشقّ. ولكنه لا يظهر للناس إِلاّ كامل الهندام، في الصيف وفي الشتاء. يمشي التؤدة منتصب الفرع. وكم من صبيّة حسبته، للوهلة الأُولى، شابًّا يافعًا. والعجيب في أمره أن الناظر إِليه، منذ أوّل ظهوره في وادينا، يراه وكأنه لم يتغيّر ولم يؤثّر عليه مرور الزمن حتى كأنه «دوريان چراي». وهو لا يتمتم مثلما يتمتم مَن في سنّه ولا تصطك أسنانه

وهو يلوك حسراته. وقد لا تكون بقيت في فمه أسنان. فما شاهدناه إلاّ مُطبقًا. وقد توقفنا عن مراقبته منذ زمن طويل بعد أن سلَّمنا بظهوره مثلما سلَّمنا بوجود سور الراهبات، حتى لم نعد نلحظ فتحاته، أو نُلقي بالاً إلى أعشاشه المهجورة.

تبعه زميلنا الشاب، يومًا، حتى دخل إلى بيته في شارع عباس. فأمهله فترة تكفيه للعودة إلى ذات نفسه، ولإبعاد شبهة التعسس عن الزميل، ما يقرب من نصف الساعة.

قال: طرقتُ الباب عليه. طرقة فالثانية فالثالثة، فلم ينفتح. فأمعنت في الأمر لا أنوي التراجع وقد بلغتُ منه عتبة داره. وإذا بالباب ينفتح، أخيرًا، انفتاح الغضب.

وإذا هو أمامي ماثل في ثيابه السوداء الرسميّة، من الرأس حتى الحذاء، التي لم نشاهده بغيرها منذ أن أصبح مَعلمًا من معالم حياتنا في هذه المدينة.

قال: سألني، بجفاء، عمّا أُريده منه. فعرّفته بنفسي وقُلت: أرغب في التحدّث إليك. فسألني عن السبب.

قال: فسألته، ألست أخا عبد الكريم؟

قال: فإذا به يصرخ في وجهي:

– بل أنا عبد الكريم.

وصفق الباب في وجهي.

*

كلّنا عبد وعبده، يا عبد الكريم. عبد الله وعبد الرحمن وعبد الباري وعبد الخالق وعبد العزيز وعبد السلام وعبد الغفّار وعبد القهّار وعبد الوهاب وعبد الرزّاق وعبد الفتّاح وعبد الباسط وعبد الرافع وعبد السمّيع وعبد القدّوس وعبد الحكيم وعبد الحافظ وعبد المجيد وعبد الحق وعبد الحميد وعبد الحيّ وعبد المالك وعبد الظاهر وعبد النور وعبد المُعطي وعبد الغني وعبد الهادي وعبد المُنتقم وعبد الناصر وعبد الصبور وبقيّة الأسماء الحُسنى.

فهل اختلط هذا الأمر علينا كما اختلطت علينا الأُمور كلّها، يا عبد الكريم؟!

تعُودُنا الذكريات مثلما كانت الحُمّى تعود أبا الطيّب – «كأنّ بها حياء». ويكون حياؤنا من أنفسنا أشدّ من حيائها. «وليس تزور إلاّ في الظلام» حتى ولو كنّا جاحظي العيون في رائعة النهار. فليس تَعُودُنا الذكريات إلاّ إذا ادلهمّ ظلام واقعنا حتى لا نرى أمامنا بصيصاً من نور ولا نرى أمامنا من مخرج. فنعود أدراجنا نتلمّس، في هذا الديماس المُظلم، منفذاً إلى النور قد نكون قد تجاوزناه دون أن ننتبه إلى وجوده. أين كانت تلك الخطوة ومتى؟ وهل يرجع الذاهبون، يا قُسّ؟!

لو رجع ناس قُسّ بن ساعدة الإيادي لأخبرونا بأنهم أمضوا

اللحظة الأخيرة – لحظة العبور على ذلك الجسر التي هي أقصر من طَرْفَة العين – في استرجاع شريط حياتهم في سرعة كونيّة إلى وراء، باحثين عن السبب في منع تأجيل الأجل. وألاّ نمضي إلاّ راضين عن ماضينا لا فرق، في خطرة هذه الخاطرة الأخيرة، بين القُسّ واللص، والميّت حتف أنفه، والميّت برغم أنفه. لم أذهب، بعد. ولا أرى إلى أنني ذاهب البتّة. فإن ذهبتُ فإنني راجع لا محالة. فإذا لم يحصل الرجوع لا يكون الذهاب قد حصل. فأيهما، يا قُسّ، تختار: الجنّة أم النار؟

يكفيني، معرفة، ما تفعله بي هذه الحُمّى. فكأنها، حين تزورني، تأتيني عُريانة وتُحيطني بالعاريات من كل جانب. ويصفّق لي العُراة تشجيعًا لي كي أتعرّى. فإذا اشتدّ حيائي وتشبّثتُ بأغطيتي انتزعت العاريات المصفّقات ما دونه. فأجدني، أمامها، مثلما وجد نفسه ذلك الأديب أمام العُراة الذين دَعَوه إلى إلقاء كلمة في ناديهم. وقفوا أمامه إجلالاً له وهم عُراة. فماذا يفعل بثيابه الرسميّة؟ فيخلع. فهل من الممكن أن يتوقّف عند ملابسه التحتية؟

زارتني هذه الحمّى، عُريانة بلا حياء، حين أبلغنا زميلنا الشاب بجواب شقيق عبد الكريم، ذلك الجواب المُقتضب. فأخذت تلحو عن شجرة ذاكرتي اللحاء، قشرة قشرة، فتنجلي أمامي الأسماء: اسمين اسمين، محفورة في جذع شجرة الكينا

القديمة القائمة في وسط شاطئ الطابغة على بحيرة طبرية، حيث كنّا نشطح مرّة أو مرّتين في العام الواحد – اسمه واسمها.

لم يكن عبد الكريم سوى اسم العائلة. وكانوا أشقاء ثلاثة: عبد الرحمن وعبد الإله وعبد القدّوس. وكانت أُمّهم نصرانيّة من قرية عبلين. ووالدهم من آل عبد الكريم من حيفا. وكانت لهم أُخت اسمها « سرو ». ونطقنا اسمها « سروة »: سمراء نحيلة كأنها ساق السروة فوقها شعر كثّ جعدي اختارها واحد منّا لقلبه فتاة أحلامه ولعينيه رمز الجمال حتى يومنا هذا.

ومنها علمنا أن عبد هو عبد الرحمن وعبده هو عبد الإله، وعبيدو هو عبد القدّوس. ولم يزاملنا منهم، حتى نهاية الصف الأوّل الثانوي، سوى عبيدو. لذلك أجزنا لأنفسنا أن نناديه باسم عبد الكريم، إذ لم يكن موجودًا في عالمنا سواه.

وسوى سروة.

كانت الدنيا مشاعة لنا، حلالاً زلالاً علينا، خصوصًا في العُطَل المدرسيّة وفي المواسم الشعبيّة. كانت الدنيا والآخرة هي بلادنا: الجرمق أعلى من هملايا، والبحيرة الجنة الدنيا وصنوبر الكرمل حور الجنان. كان البحر أصفى زرقة من الدانوب الأزرق، وأوفر سمكًا من البحر العدني. وأما صخوره

فكانت تجزل لنا العطاء دواقير أطول من قاماتنا.

كنّا نجمع القروش، طول أيام السنة، حتى نكتري الدراجات الهوائيّة في الصيف ونسوح في بلادنا، نسبح أو نمرح. في كل منعطف نهر ووراء كل مارس عين من الماء ترنو إلينا. وهذه قريتي وتلك العاصمة. وحيثما ضعنا وجدنا قريبًا أو معرفة. ولا تخرج الصبيّة القرويّة عن خفرها إلاّ مع أولاد المدينة فنتلعثم ويشتدّ خفرنا ونعود بزوّادة منها: عرائس من خبز الطابون، لا تدوم طويلاً، وخلسات من عيونهن تعيش حَوْلاً لا حول لنا فيه ولا طائل. حتى إذا عُدنا إلى الضياع في العام القادم، في تلك القرية، قيل لنا إنها تزوّجت.

فما نلت منها غير أنك سائل

بعينيك عينيها وَعوْدُك خائب.

أمّا في رحلاتنا، بعيداً، إلى الطابغة على شاطئ البحيرة فكان الأمر مختلفًا جدًا. كان أمر هذه الرحلات في أيدي كبارنا. فكنّا نشطح سويةً، عائلات عائلات. وكنّا، حين كان الشارع في مهده، أشبه بعائلة واحدة. سوى عائلة عبد الكريم التي كان أفرادها مشغولين في طلب الرزق.

كان عبد الرحمن يعمل سائقًا لقطار سكّة الحديد البخاري، الذي كان يقطر عربات محمّلة بالصخور المقتلعة من عتليت، ذهابًا وإيابًا إلى شاطئ حيفا الجنوبي. وكانوا يطمرون بها

البحر، مشيدين الحاجز الصخري الطويل، كاسح الأمواج، الذي يحمي الآن ميناء حيفا من غائلة البحر.

وكان، في العُطل الصيفيّة، يصطحب أخاه الصغير، عبد القدُّوس. وكان عبد القدُّوس يدّعي أمامنا أن أخاه الكبير يجيز له، أحيانًا، العمل مُعاونًا له. ومنه سمعنا، لأوّل مرّة، كلمة «عطشلي» وأنها وظيفة المُعاون. وهو الذي «يسقي» وجار النار بالفحم الحجري حين «تعطش» النار. أي تلحّ عليهم طالبةً المزيد من الفحم الحجري.

وكان أخوهم الثاني، عبد الإله، يصطحب أخاه عبد القدُّوس، أحيانًا، إلى حيث يعمل في صهاريج شركة بترول العراق (آي. پي. سي. أو «الأبسية») على الشاطئ الشمالي من حيفا. وهناك أصبح عبد القدُّوس «خرّاطًا». أي يدير آلة «المخرطة». وكان العمل فيها، في زماننا، يدويًا يحتاج مؤدّيه إلى فطنة وتجربة وبعض الإلمام بحساب الجبر. وذلك لوضع الدولاب المُسنّن المُلائم لصق دولاب مسنّن ملائم، أصغر منه قُطرًا أو أكبر، لتخرط المخرطة الحُزوز المطلوبة في أُنبوب أو ماسورة. ومنه علمنا، لأوّل مرّة، أنهم يسمّون إلصاق الدولاب المُسنّن بالدولاب المُسنّن باسم «التعشيق» - «عشق يعشق فتعشّقا فهما مُتعاشقان». فأعجبنا هذا العشق الحديديّ الذي لا يدوم إلاّ حتى يؤدي المهمّة التي وقع من

أجلها. ولكنه لم يرضنا. قلنا: وأما العشق الإنساني فأطول عُمرًا من أخيه الحديدي.

وكان عبد الرحمن يصطحب أُخته سروة معه أحيانًا. وذلك حين كانت تُصاب بصداع شديد يمنع النوم عنها. وكان هذا الصداع يأتيها مرّة في الشهر. فكان يأخذها معه في صباح اليوم التالي وتتغيّب فيه عن المدرسة، وقيل إنه يفعل ذلك استجابةً لنصيحة الطبيب.

وكانت سروة تحدّثنا عن رحلاتها هذه أحاديث كانت تملأ قلوبنا شوقًا إلى ما هو آتٍ من أُمور مُدهشة. وكانت ترسم على عتبة الدار، بقلم رصاص أو بحجر مُدبّب، منجلاً ومطرقة متعاشقين، ثمّ تمحو الرسم بريقها في سرعة البرق، وتفرّ شاردة في جنينة عباس. كانت تسترق السمع إلى ما كان يدور من همس بين أخيها ومعاونه «العطشلي». وأطيب الحديث بينهما، قالت، كان في الساعة العاشرة من الصباح حين يوقفان القطار على شاطئ عتليت وينزلان إلى الأرض مستريحين فيما تقوم سروة بإعداد طعام الإفطار لهما: أرغفة من الخبز مدهونة باللبنة الخضراء مع زيت الزيتون كانت تدخلها إلى وجار النار لحظة ثم تخرجها ملتهبة، من غير سوء، يسيل الزيت الثائر منها فيسيل لعابهم. وكانوا، قالت، يتحدّثون عن ثورة اندلعت نيرانها في مكان بعيد. ولكنهم قالوا: ستبلغنا لا محالة.

وكانت تكفر أحياناً. فإن فعلت ذلك فرّت منّا إلى بيتها، وتركتنا مصعوقين سوى زميلنا البهائي جمال. فقد كان، حين تمضي، يوزّع ابتساماته العليمة علينا. وكنّا نحمل أمرهما هذا على أنه ملاذهما الوحيد من امتزاج الأديان حتى لم يبقَ لهما من رابط سوى الله والوطن. كانت سروة ثورة من نار، ملتهبة. كانت تتحدّانا وترتقي شجرة السرو العالية، علو ثمانية أمتار، في فناء بيتها حتى تبلغ أعلاها. فكانت تميل بها كما تشاء وتهوى. وكانت تصرخ بنا: هل تسمعونني؟ نسمعك. فتهمس بكلام. ثم تعود تصرخ. هل تسمعون ما قلتُ؟ لا نسمعك. الحقوني، إذن، فتسمعوا. فلا نجرؤ على ذلك. فتنزل وهي تضحك وتقول: يا جبناء. لقد خلوت بالله أسأله عن الجنّة.

– فماذا أخبرك؟

– أنا الجنّة وأنا النار.

وتشرد ونجري وراءها ونحن نردِّد:

«هذي الجنّة وهيّ النار

إفهم إفهم يا حمار»!

ولم نكن نفهم.

وكانت تأتي معنا، أحياناً، في زيارات الصيف والربيع في الطابغة. وكانت تأتي مع أبوَيها من دون أُخوتها المشغولين

بطلب الرزق.

وكانت سروة تتسلّق ساق شجرة الكينا، التي يرويها شلاّل الماء في الطابغة حتى يومنا هذا، لتحفر اسمها واسم صاحبها في مكان عالٍ لا تطوله أنظار الآخرين منّا. أما الآخرون، فتية وفتيات، فملأوا جذعها بآيات الحبّ والوفاء.

وكنّا نعود إليها، في العام التالي، فنجد آثارنا هذه ارتفعت إصبعًا أو إصبعين أو عفت عليها قشرة جديدة. وتكون قلوبنا، في هذه الأثناء، قد تغيّرت كما لو أنها العشق الحديدي من غير مخرطة. فنحفر أسماء أُخرى بأزاميل الحب والوفاء نفسها.

أما سروة فكانت تصعد، في الشطحة الواحدة، بوصة أو بوصتين في أعلى الساق لتعود على اسمها واسمه حفرًا عميقًا.

حتى كانت تلك الشطحة.

ظلّت سروة تصعد في أعلى الشجرة حتى بلغت رأسها وكادت تختفي عن أنظارنا.

دارت الأرض في رؤوسنا ونحن نراها تصعد وتصعد دون أن تتوقّف أو تبلغ رأس الشجرة. ولم نشأ أن نصرخ خوفًا من أن نثير قلق والديها عليها.

– إلى أين، يا سروة؟

– علواً، علواً، حتى أبلغ قصر الغول وأُحرّر اخطيّة من سجنها.

– اخطيّة؟

– الحقوني.

ماذا دهاها وماذا دهانا؟

كنّا أولاداً. وأراني، أرانا، جميعًا، قصار القامة، بين المَكْوَر والعود – قصار القامة. وكانت الشجرة طويلة طويلة حتى لا نهاية لطولها. وكان الوقت عصراً. وكانت الريح تعصف بالبحيرة وتكنس سطحها زبداً. وكان الموج يشبّ نحو السماء، كما تفعل سروة، ليفكّ أقدامه من سلاسل البحيرة. ثم يطأطئ رؤوسه استكانة كما تأبى أن تفعل سروة.

فأجفلنا نداؤها وسمّرنا في مواقعنا. أما صاحبها فهمّ واستهمّ وأقدم حتى الجذع. وكان صاحبها سميناً مكوّراً مدوّراً على طيبة قلب وضعته، في أنظارنا، فوق نزاعاتنا. فإذا هو الحكم فيها. احتضن الجذع بيديه وحاول التسلّق. فسمعنا سروة تضحك، فضحكنا. ثم سمعناها تصيح فينا: من أراد منكم أن يعرف سرّ اخطيّة يرتفع ويعلو حتى يلحقني.

سرّ اخطيّة؟

كان سرّها في عنفوان ديجوره. وكانت اخطيّة قد اختفت

واختفت عائلتها من بعد اختفائها. وكان تأنيب الضمير يرفعنا ويحطّنا. وكانت الخشخشة قد أصمتت آذاننا وعواء الثعالب أصبح يخرج من صدورنا.

- الحقوني.

لم نجرؤ على اللحاق بها.

- الحقوني.

وقعت سروة من أعلى الشجرة. وقعت على الصخرة الملساء التي غسلها ماء الشلاّل منذ بدء الخليقة.

الصخرة التي لم يكن يجرؤ على الوقوف فوقها والابتهال إلى ماء الشلال، المتدفّق منذ بدء الخليقة، ماءً بكرًا من رحم هذه الأرض المعطاء، سوى سروة.

كانت العفريتة ترقص فوق الصخرة وتحرّك يديها وخصرها النحيل، خلال ماء الشلال، فتظهر لنا راقصة حبشيّة في غلالة بيضاء في قصر الرشيد ببغداد، أحيانًا، وأحيانًا كأنها ماريا القبطيّة. وكانت كليوبطرة. وكانت خيالاً. وكانت بعيدة المنال. كانت أشبه بما كانت تملأ قلوبنا شوقًا إليه مِمّا هو آتٍ من أُمور مُدهشة.

وقعت سروة فوق صخرتها: راقصة سمراء في غلالة حمراء سيابة، سيابة. انسابت الغلالة الحمراء عن صخرتها فغطّت جُرن الشلال بقطيفة أُرجوانيّة خطفها الريح بعيداً في حضن

البحيرة. ورأينا النار في حلّة نار. وعادت الصخرة ملساء، عذراء، كما كانت منذ بدء الخليقة. ولم يتوقّف الشلاّل عن مسح دمائها ودموعنا. وعادت ذاكرتنا، ملساء، عذراء من هول تلك الصدمة.

وأقفر من أهله شارع عباس. ذهبت سروة وأُخوتها كما ذهبت، من قبلها، اخطيّة.

الدفتر الثالث

وادي عبقر

« مـــا إِن جـــزعـــت ولا هـــلـــعـــت

ولا يـــــردّ بـــــكـــــاي زنـــــــدًا

ذهـــب الـــذيـــن أُحـــبّـــهـــم

وبـــقـــيـــت مـــثـــل الـــسـيــف فـــردًا »

(عمرو بن معديكرب)

(١)

الكنزة الصوفيّة

طرقتُ باب بيته عشاء. فاستقبلني عبد الرحمن بعينين سرعان ما ذكّرتاني بتلك الصخرة. ورأيت غشاوة من شلال تغسلهما.

قال: ستة وثلاثين عامًا وأنا أنتظر هذه الصحوة.

قلت، مُعتذرًا: لم أنتظر أن تنام في مثل هذه الساعة المبكّرة.

فحدجني بابتسامة دامعة، واقتادني إلى غرفة جلوس أنيقة نظيفة تعبق برائحة الماضي، كما لو أن نوافذها لم تُفتح على الشمس أربعين عامًا. وكانت مكتظّة بالمقاعد ذات الطَّرْز العتيق وقد علتها مسحة من غبار لو كان النسيان غبارًا لكانه. فمددت يدي كي أمسحه عن مقعدي فأوقفتني عن ذلك مسحة من عتاب بين شفتيه. فجلست وئيدًا كما يجلس من نومةٍ صاحٍ.

قلت: ألا تفتح النوافذ على الشمس؟

قال: غابت الشمس.

قلت: وفي الصباح؟

قال: أخرج أبحث عنها في أزقّتكم. وتُقفر من

زائريها الدار.

«أقفرت، من أهلها، حَوْباء
فالقضّبيات فالرقباء».

قلت: عاد الشارع يضجّ بنا.

قال: فترسل إليّ صبيًا؟

قلت: كانت صدمتنا بذهاب سروة من بين أيدينا، ونحن نتفرّج عاجزين عن ردّ هذا القدر، أكبر من أن تحتملها نفوسنا الغضّة. فأحطنا الذاكرة بأكياس ملأناها بالنسيان استحكمنا وراءها نصدّ غارات اليأس حتى لم يبقَ في الذاكرة سوى هذا السياج. لقد تركتم بيتكم هذا منذ ذلك الوقت فافترقت مسالكنا. فلمّا ظهرت لنا، فجأة، شبحًا صامتًا سلّمنا بك ظاهرة أُخرى من ظواهر الكابوس الذي استيقظنا عليه دون أن نحلم به ودون أن يفكّ عنّا.

ذهب الذين نُحبّهم وبقي الذين نحبّهم. فمَن مِن الذين نُحبّهم ذهب ومَن مِن الذين نُحبّهم لم يذهب؟ كانوا يصبحون عليك فتردّ عليهم الصُّبح بأحسن منه وأنت مذهول: أين التقيتما من قبل؟ فيعتب عليك هذا النسيان بعد أن قضيتما خمس سنين متجاورين في مقاعد الدراسة. وتلقي السلام عليها وأنت متأكد من أنك كنت، أيام الصبا، قبَّلْتَها خلسةً فتواعدتما والتقيتما. فيأتيك جار لك أو صديق

يعاتبك: مالك وهذه القروية التي لا تعرفك ولا تعرفها؟
وتقول: ما له وما لي هذا الشايب؟

كان الانقلاب بُركانيًا ولكنه لم يقلب الدنيا علينا أشدّ ممّا قلبها علينا في حيفا وغيرها من المدن. فهنا لم يُبقِ البركان منّا سوى رماد وبضعة أفواه تنفخ في رماد وريح تعصف بقاعٍ صَفْصَفٍ. وكانت الريح تذرّي الرماد أشباحًا. وكنتَ، يا عبد الرحمن، واحدًا منها.

وكانت الأشباح تظهر فجأة ثم تختفي، كما الأشباح، فجأة. لا أذكر أن أيّة جنازة اخترقت أزقّتنا، في ذلك الزمن القصيّ، أو إعلان نعي مُلصق بعمود. ما كُنّا نموت، في ذلك الزمن، بل نذهب. فُلان أخذوه. وفُلانة رحّلوها. عالم متكامل تداعى به المسرح وابتلعه الجوف وهو في ميعة الحركة وفرحة الاندماج في كوميديا الحياة. فمن ديكور تختلط ألوانه وتتلاطم جدرانه ومن حبال تترامى فتعلق بأرجل أو بأيدٍ أو بأعناق. ناس يتأرجحون. فذلك يتأرجح برجله. وذلك يتشبّث بالحبل بيده. وذلك مشنوق. ومن عارضة خشب مقصوفة يتعلّق بها ممثل كهل سمين فتنوء به، فيصفّق المشاهدون استحسانًا.

تمتلئ القاعة بالمشاهدين المتحمّسين.

المشاهدون.

تشتدّ الحماسة بهم. يقفون على أرجلهم. يصفّقون استحسانًا.

الممثلون.

ذلك المعلّق بالحبل من رجله، ورأسه يتأرجح في أسفله، يتطلّع إلى المشاهدين بعينين فيهما أمل: لم تعد الشاشة تفصل ما بيننا وما بينكم. لم نعد ممثلين وأنتم المشاهدون. القاعة واحدة والناس ناس، أيها الناس.

المشاهدون.

يقهقه المشاهدون استحسانًا. ويتقدّمون إلى أمام من شدّة الحماس.

المُعلّق بالحبل من رجله لا يراهم إلاّ بعينيه، ولا يسمعهم إلاّ بأُذنيه، ولا يحسّ بهم إلاّ بصدره، وهم يتدافعون فوقه يشيلون الردم وبقايا الهدم وينظّفون الأرض، يقصّون الحبال السائبة وينتزعون الأخشاب العائبة. ويأتون بالجرّافات تحمل الأتربة. فتتطاير من تحتها أوراق كان أخفاها الممثلون في جيوبهم ليعودوا إليها، خلسةً، حين تخونهم الذاكرة. وأهلّة من اسطوانات «بيضافون»، وبقية من بندقية خشبيّة، وطرطور وعباءة سوداء من «لولا المحامي»، وغصن زيزفون وماجدولين..

– اخطيّة.

قد لا يكون حديثي معه في هذا السياق الفنّي. وقد يكون

قاطعني، في أثنائه، بسؤال أو بتعليق أو بهمهمة. وقد تكون أخيلتنا اختلطت فأوردت على لساني ما جاء على عينيه. ولكنه، يقينًا، نادى على اخطيّة في اللحظة التي تذكّرت فيها «ماجدولين، أو تحت ظلال الزيزفون». فسمعت صرير عجلة من ورائي. فلم أستدر. هل كنت تقوى، يا محمود، على أية حركة لو وجدت نفسك، فجأة، في غرفتك في شارع عباس تحيط بك ثلاث سيّدات، هنّ بنات الشمعداني؟

لم أقوَ على أية حركة فيما كان الصرير يقترب ويعلو. الخشخشة. عواء الثعالب على عتبات بيوتنا. الخشخشة. وإذا بسيدة سيدة جالسة على كرسي ذي عجلتين تواجهني بعيني اخطيّة.

طالعتني بتلك الأُلفة القديمة. لم تقل: لا أستطيع إلاّ أن أُحبّكم. ولكنها قالت، بعينيها، لي: هل استطعتم أن تحبّوا سواي؟

كان الشبح واقفًا، مُنتصب القامة، حين جرى هذا العتاب بيننا. ولم يعد عبد الرحمن شبحًا صامتًا. فكأنّ ظهور اخطيّة فكّ عقدة لسانه. وكأنه لا يرى من فائدة لملكة الكلام إلاّ في حضور هذه الملكة.

كذبت عليك، يا محمود، كذبة بيضاء، كما الذاكرة، حين أبلغتك بأنّني انتهيت من كتابة هذه الرواية، وأتممتُ نقمتها

عليكم. فإنّي أجدها الآن ما إن تُشرف على النهاية حتى تُشرف على حديقة جديدة أو شاطئ جديد. فلا تستعجلوا عسى أن لا يتعجّلنا البَيْن.

إنّ حالي فيها كحال الوالدة حين كانت تفكّ الكنزة الصوفيّة العتيقة، التي خلفها لنا زوجها الراحل، والدنا، خيطًا خيطًا. كانت تعقد أطراف هذه الخيوط فتُصبح خيطًا واحدًا تنسج منه دفنات لأولادها. ما كان شيء، من متاع هذا البيت، يذهب ضياعًا يا أولادي. حتى الحليب، إذا فسد، جفّفناه وجعلنا منه، مع السكّر أو العسل، طبقًا من الحلوى.

أعرف أننا كنّا نستعجلها لنتّقي البرد بدفناتها. وكانت تعتذر لنا قائلة: لي يدان اثنتان وأنتم صدور تسعة.

وأنا أيضًا، يا محمود، لي يدان اثنتان وأنتم تسعة وتسعون. فلا تستعجلني، فأنا المضطرّ إلى العجلة.

ولدت اخطيّة كسيحًا. وأذهلني عبد الرحمن حين قال إنه ازداد تعلّقًا بها حين علم هذه الميزة فيها. قال: لو لم يكن الجبل كسيحًا لكرهناه. ولو لم يكن البحر كسيحًا لأغرقنا. ولا تتألق اخطيّة إلاّ بمن يحبّونها.

وهذا – قال – هو السرّ الذي دعتكم سروة إلى اللحاق بها، في الأعالي، كي تروه فظننتم الظنون باخطيّة. إن اخطيّة لا تلد سِفاحًا.

علّمتُ سروة الصعود. فصعدت إلى الشرفة. فكانت رسول اخطيّة إليكم.

– فأي اسم حفرته سروة في أعالي الشجرة؟

– اصعدوا تَرَوْا.

– فمن كان يحمل رسائل اخطيّة بعد أن صعدت سروة ولم تعد؟

– أنا.

لم أسأله عمّا دعاه إلى فعل هذا الأمر. وأسئلة كثيرة غير هذا السؤال. قعدتُ في الغرفة المُعتمة أنتظر عودته حتى أُطفئ غليلي منها. فقد قام، بإشارة من عيني اخطيّة، ودفع كرسيها ذا العجلتين وغابا عن ناظري في زاوية من زوايا هذه الدار العتيقة التي شاءوا أن يحفظوها كما كانت.

وانتظرت، قاعدًا في مقعدي، طويلاً. قمت وفتحت ستارة نافذة فإذا بالليل قد أسدل أستاره. مددت يدي نحو الجدران أبحث عن مفتاح كهرباء فلم تعثرا إلاّ على فضاء. فمضيت ممدود اليدين حتى وقعتُ على عتبة خارجيّة. فوجدتني واقفًا على قدميّ على أرض شارع عباس تحت عمود كهرباء ضرير. لم أسمع عواء الثعالب على العتبة. ولكنني سمعتُ خشخشة الباب وهو يُقفل من ورائي.

(٢)

صباح الخير يا عبد الرحمن

ضحكتُ.

ضحكتُ حين انتبهت إلى نافذة مفتوحة أمامي أطلّ منها رجل عربي كنّا نشتبه في أمره، وأنه نظر في ساعة يده حين خروجي من دار عبد الرحمن، وتذكّرت أنه فعل الأمر نفسه لدى قيامي بالدخول إلى دار عبد الرحمن. فمن المراقَب، عبد الرحمن أم أنا؟

وضحكتُ حين لاحظتُ أن امرأة، فوق شرفة، حسبت أنني أتسكّع تحت شرفتها لأمر في نفسها.

ضحكتُ حين وجدتني أُسرع في سيري لأُبعد عن نفسي هذه الشبهة أو أُختها.

ضحكتُ حين وجدتني أتحاشى اللقاء مع أحد زملائي الذي كان عائدًا إلى بيته في شارع عباس تفاديًا لأسئلته التي قد لا أجد لها جوابًا.

ضحكتُ حين تداريت عنه بزاوية بيت. فعَوى كلب. ففتحت صاحبة البيت الباب في وجهي مُرحّبة. فقد كان البيت، فيما مضى من «زمن العرب»، بيت واحد من أُخوتي.

قالت: اشتريناه من سكّانه اليهود السابقين. ما بدّلوا فيه وما بدّلنا. كان أخوك حريصاً على بيته، الله يتمّ عليه.

ضحكتُ حين قلت لها إن الله أتمّ نعمته عليه، منذ خمسة أعوام، فأخذه إلى جواره.

وضحكتُ حين أخبرتني بأنّ سكان شارع عباس اليهود يَجلون عنه، الواحد بعد الآخر، منذ أن أخذ سكانه العرب في التكاثر.

ضحكتُ حين دخل زوجها فوقفت وقدح القهوة في يدي فوقع على الأرض فانكسر، فقال: انكسر الشرّ. فقالت: أول قدح ينكسر من طقم أخيك القديم. ضحكتُ لأنني كسرتُ، بيدي، قدحين من هذا الطقم منذ «زمن العرب». وهو طقم شائع من صنع ياباني.

ضحكتُ حين وجدتني عاجزاً عن إبلاغ زملائي، في الجريدة، بخبر زيارتي وبما جرى لي معه.

ومع اخطيّة؟

ضحكتُ حين راجعت ذاكرتي فوجدت أنها لم تتكلّم إلاّ بعينيها. فهل وُلدت اخطيّة خرساء أيضاً؟

وقفت للبندول على زاوية من زواياه الثابتة، على عتبة مدخل «الاتّحاد» في زقاق الحريري. رقم الدار ٩ والساعة التاسعة وتسع دقائق. لقد كان زميلنا الشاب العصري تحقّق

من دقّة البندول، في مروره من هذه الزاوية، في أيام مختلفة وفي الفصول الأربعة، فوجدها مضبوطة.

بتُّ في حيفا لكي أستيقظ وأنزل إلى زقاق الحريري وأكون أمامه في تلك اللحظة المضبوطة، فأطرح عليه السلام.

وانتابتني الظنون في تلك الليلة حتى لم أنم إلاّ في ساعة الفجر الكاذب، فقد لا أستيقظ في الموعد. وقد يُصاب بوعكة. بل قد يموت، وقد لا يَمُرّ، لأوّل مرّة، في تلك اللحظة المضبوطة.

وقفتُ على عتبة دار «الاتّحاد» بدءاً من الساعة الثامنة والنصف صباحًا. سمعتُ جارتنا، من فوق شُرفتها، تتهامس مع زوجها عن سبب وقفتي الصباحيّة هذه من غير عادة. فضحكتُ في عُبّي ممّا سيشطّون به من تأويل. دخلت عاملة البدّالة. لم تطرح عليّ الصباح بل أبدت دهشتها من تبكيري. فتحت الباب وقعدت على مقعدها أمام البدّالة، ثم أطلّت من نافذتها على الزقاق. دخلت عاملة النظافة وصبّحت ولم تتزحزح. أخذ الموظّفون والموظّفات، المحرّرون والمحرّرات، في المجيء إلى الدار وأنا واقف على العتبة متصامًا لا أنظر إلى فوق ولا إلى وراء ولا إلى جانب. غير أنّني أحسستُ بالشرفات وبالنوافذ تمتلئ بالنظّارة الصامتين.

ضحكتُ في عُبّي حين انتبهت إلى ما يُحدثه في الناس أمر

غير مألوف حتى ولو كان أمرًا طبيعيًا غاية في طبيعته. فأيّ السلام الطبيعي أطرحه عليه حين يمرّ؟ صباح الخير؟ صباح الخير يا عبد الرحمن؟ السلام عليكم؟ مرحبًا يا عبد؟

هل سيمرّ؟

متى تأتي هذه الساعة؟

جاءت. مرّ شبح وادي النسناس من أمامي في اللحظة المضبوطة.

لم أطرح عليه السلام ولم يلتفت نحوي. مضى كما كان يمضي في كل يوم من غير أي انتباه.

لو استيقظنا، صباحًا، ونزلنا إلى فرن وادي النسناس نشتري منقوشة زيت بزعتر فلم نجد الفرن في مكانه المضبوط لأقمنا الغاغة. أما ما دام الفرن قائمًا في مكانه فهل نطرح عليه السلام لكي نتأكد منه؟

غافلتُ النظّارة ونزلت إلى الفرن. وقفت أمامه وطرحت السلام عليه، وأنا أضحك في عُبّي. ولكنني طرحته في غفلة من النظّارة. وجدتني، وأنا أطرحه، كما العفريت في الإبريق. ولم أُظهر رأس الحصان إلاّ لنفسي فأغرقت عُبّي بالضحك.

انطويت على نفسي فأغرقتُ بالضحك من نفسي. أما وجهي فحافظت على شكله الاعتيادي. هل كان عبد الرحمن، بشكله الاعتيادي، يضحك منّا وعلينا؟

كاد صدري ينفجر بالضحك المكتوم في صدري فازددت تجهمًا أمام النظّارة. نظري الشارد لا يلتقي أنظارهم الشاردة. كُلٌّ منطوٍ على عفريته. فلماذا لا تلتقي عفاريتنا؟

هل تلتقي؟

طيّب الله ثرى مديرنا عجاج نويهض. لولا شدّته علينا لكنّا لبسنا قبعنا ولحقنا ربعنا من أُدباء العرب في الاستهانة بهذه اللغة التي منحت لغات الأرض طُرًّا اسمها ولسانها.

وكان بَرًّا بنا فأنشأنا أبناء بتراثها بَرَرَة. فأوكل بي نظم برنامج إذاعي عن «أمثال العوامّ» من كتاب ضخم كان عليّ أن أختار منه أمثالاً أُوزّعها على سواي من الزملاء وعلى نفسي، في شبه حوار إذاعي فيما بيننا. فأخرج عفريتي لسانه من الإبريق. فاخترت من «أمثال العوامّ» ما يصلح لنا انتقامًا من شدّته علينا. وكان يقظًا يستمع، في مكتبه أو في بيته، إلى ما يُذاع. وكنّا كسالى لا نراجع المادة التي علينا أن نذيعها قبل إذاعتها. فما انتبه زملائي إلى ما اختاره عفريتي من «أمثال العوامّ» إلاّ ونحن «على الهواء». فأخذ الواحد منّا يكظم ضحكته. فإذا اشتدّ الأمر على أحدنا أغلقنا مفتاح الإذاعة.

ذهب الذين أُحبّهم..

أصبحنا وإذا نظرة الواحد منّا في وجه الآخر تُخرج من صدره عفريته. فيغرق في الضحك. فتوهّمنا أن مجرد المشاهدة هو

السبب. فخرجنا من قاعة الإذاعة، وصار الواحد منّا يدخل إلى القاعة ويجلس أمام المذياع يُلقي المثل المقرر عليه ثم يهرب خارجًا، فكنّا نصطدم، مكرًّا مفرًّا، فنموت من الضحك حتى لم نقوَ على أن نذيع، في ساعة كاملة، أكثر من خمسة أمثال أو ستة. أما بقية الساعة فأمضيناها وقد أقفلنا مفتاح الإذاعة – صمتًا مُريبًا وقف وراءه مديرنا عجاج نويهض رحمة الله عليه.

ذهب الذين أُحبّهم..

قاصصنا، رحمه الله، بأن منعنا من الخروج من مكاتبنا في الإذاعة طول شهر رمضان المبارك. فحرمنا من التقائنا السنوي المضمّخ بنور زماني، آية من الله، لور دكاش، وإيليا بيضا، وعامر خدّاج، وأبي السعيد، وسعيد وراجي ومراد، ومسرحيات أولاد الجوزي، وليالي السمن والعسل الجوهريّة.

ذهب الذين أُحبّهم..

فلماذا ذهبوا؟

كم مرّة وقفنا أُلوفًا، في حفل تأبيني، إجلالاً لذكرى فقيد عزيز.

دقيقة واحدة.

دقيقة واحدة ننطوي فيها على أنفسنا، كُلٌّ مع عفريته يضحك في عُبِّه على نفسه. أمام الموقف الحرج نتثاءَب أو

تدهمنا الرغبة في الضحك.

دقيقة واحدة بطلب من عريف الحفل.

فما المانع من أن تأتي بغير طلب؟ ما المانع من أن تلتقي، في لحظة واحدة، عفاريتنا وأن تتّفق فيما بينها، في غفلة منّا، على هذا اللقاء؟

في دقيقة واحدة. في ساعة واحدة.

هل تختلف العفاريت شعوبًا وأقوامًا؟

أمّا في شارع «هحالوتس»، في تلك اللحظة، الدقيقة والساعة. فلم تختلف.

كُلٌّ انطوى على نفسه، على عفريته.

ذهب الذين أُحبّهم..

لماذا ذهبتُ مع الذاهبين؟ لماذا بقيتُ من دونهم؟ ولماذا جئتُ وتركتُهم؟

إنّ مرور الوقت على هذا الأمر، من غير أن يهتدي أيّ واحد منّا على جواب، هو الذي أهداني إلى هذا الجواب، إلى الأمر الطبيعي حتى غايته.

فلو اختار الأمير أن يضع الورقة الخضراء الوحيدة على جبين واحد من أبناء الوزير الثلاثة لكان اثنان منهم، على الأقل، علما بأن الورقة على جبينه لونها أحمر. أما وقد ساواهم بلون الأوراق، فوق جباههم، فقد اختلط الأمر عليهم جميعًا. فلمّا

صمت الثلاثة، ساعة من الزمن، أدرك أشدّهم فطنة حقيقة الأمر.

ذهب الذين أُحبّهم، وبقيت اخطيّة.

وفي لحظة من اللحظات، في شارع من شوارع حيفا، المُكتظّة بالسابلة وبالسيّارات، خرجت العفاريت من الصدور، والتقت في وادي عبقر في رائعة النهار: كل يسأل عن اخطيّته كيف تركها، ولماذا تركها، وكيف حالها من بعده. اخطيّة الكسيح لولا سروة. اخطيّة الخرساء لولا.. لولا عبد الرحمن؟!

(الناصرة، ١٠ شباط ١٩٨٥)



جدل الخصوصيّة والإبداع

يستحضر اسم إميل حبيبي على الفور الأديب الأبرز من بين الآباء المؤسّسين للرواية الفلسطينية المعاصرة، لا بمعنى الأسبقيّة الزمنيّة بل بالمعنى الأعمق للتأسيس، الذي يُحيل إلى فنّية الرواية ذاتها، شكليًا وروحيًا. وذلك فضلاً عن كونه يمثّل تيارًا أساسيًا في الرواية العربية المعاصرة، لحمته وسُداه تطعيم الشّكل الروائي الحديث بعناصر سرديّة وغير سرديّة مجتلبة من التراث العربي والحكايات الشعبية وأشكال السّرد الشفوي.

منذ عمله الإبداعي الأول «سداسيّة الأيام الستة»، الذي ظهر بعد عدوان حزيران / يونيو ١٩٦٧، وحتى «خُرَّافية سرايا بنت الغول»، التي ظهرت في ١٩٩١، وما بينهما من أعمال، استطاع إميل حبيبي أن يشيد بناءَه الروائي على موادّ متنوّعة متغايرة وأن يؤالف نصّه في دوائر متقاطعة وأن يجعل الكتابة الأدبية الساخرة تُحلّق في مناطق لم تكن مطروقة.

المتابع لأعمال إميل حبيبي على مدار أعوام إبداعه كافّة، سيجد أن هذا الكاتب الفلسطيني الكبير لم يتخلَّ عن أُسلوبه الذي ربّما بلغ ذروته في «المتشائل»، ومن خلاله شقّ طريقًا جديدة الجِدّة كلّها للرواية العربية، لا تزال تغري العديد من النُّقاد والدّارسين بالمزيد من البحث والتقصّي في أدبه المتكامل وأسلوبه المخصوص.

رحل إميل حبيبي في الأول من أيار عام ١٩٩٦ عن ٧٥ عامًا (مواليد ٢٩ آب ١٩٢١). وخلال حياته العريضة ملأ الكثير من المواقع بجدارة لافتة. وفي جميعها ترك علامات فارقة على مسيرته، التي قد يوجز أحد جوانبها الأكثر إثارة العنوان الزخم: جدل الخصوصية والإبداع.

فقد كان أديبًا ومسرحيًا وكاتب مقالة وقائدًا سياسيًا وابنًا بارًّا لشعبه العربي الفلسطيني. كما كان العاشق الأكبر لمدينة حيفا – مسقط رأسه.

إبداعات إميل حبيبي في مختلف المضامير السالفة، التي يمكن من خلالها الاغتراف من مذاق الكينونة الفلسطينية عمومًا وفي الدّاخل خصوصًا، حافلة ضمن أشياء أُخرى بتوصيفات للمكان الذي عاش

تبدّلاته في منعطفات المصير الإنساني. ومن الطبيعي أن تكون متّصلة اتصالاً وثيقًا بمدينة حيفا، حيث اختار أن يرقد فيها رقدته الأبديّة داعيًا، في وصيّته الغنيّة بالدلالات، إلى نقش عبارة «باقٍ في حيفا» على شاهد قبره عند سفوح الكرمل وعلى مقربة من زرقة البحر.

حاز إميل حبيبي على جوائز عديدة عربية وعالمية، لعلّ أبرزها «وسام القدس» (١٩٩٠)، أرفع جائزة فلسطينية. وشارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العربية. واختير في ١٩٩١ بوصفه الكاتب الأهم في العالم العربي من قبل مجلة «المجلة» اللندنية. وكان عضوًا في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) عن الحزب الشيوعي في السنوات ١٩٥٣- ١٩٧٢، وتولّى رئاسة تحرير صحيفة «الاتحاد» في السنوات ١٩٤٤- ١٩٨٩، حيث عمل على إنجاز تحويلها إلى جريدة يوميّة. وقبل وفاته أسّس «مشارف»، المجلة الثقافية العربية الصادرة في حيفا، سوية مع إنشاء «دار عربسك للنشر».

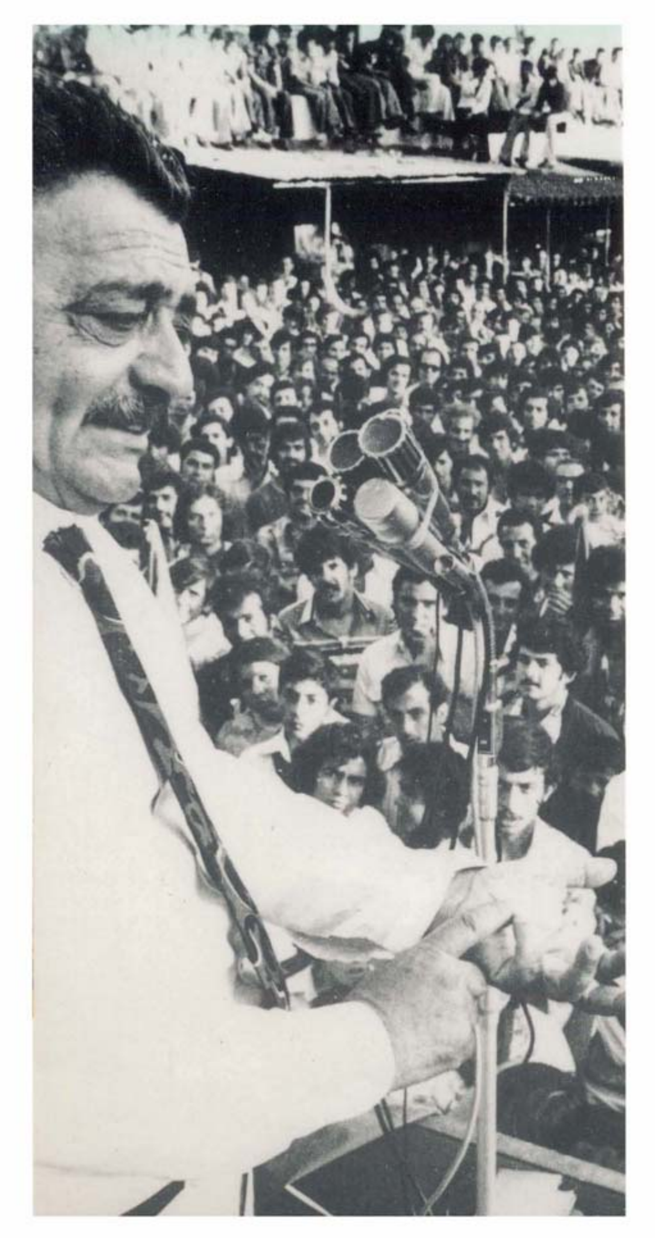
أهم كتبه الأدبيّة المنشورة: «سداسية الأيام الستة» (١٩٦٩)، «المتشائل» (١٩٧٤)، «لكع بن لكع» (١٩٨٠)، «إخطيّة» (١٩٨٥)، «سرايا بنت الغول» (١٩٩١)، و«أم الروبابيكيا» (١٩٩٢)، و«سراج الغولة» النص الوصيّة المنشور بعد وفاته.

تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات بينها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، بالإضافة إلى اللغة العبرية.

رغم الكثير الذي كتب عن تجربته الأدبيّة، ما زالت هذه التّجربة تستقطب القرّاء والنُّقاد والباحثين العرب ومن العالم أجمع، بالتطويرات والتجديدات التي أدخلتها على الرواية العربية، وبالتوازيات التي أقامتها بين شخصيّاتها وشخصيّات روائية أُخرى في الرواية العالمية، وبما أضافته على أشكال السّرد العربية التراثية بعد الاستفادة منها، وفوق ذلك كلّه بما أحدثته من أثر متميّز وبصمة خاصة على الكتابة الأدبية العربية، شكلاً ومحتوىً.

إصدار آثاره الكاملة بعد عشر سنوات على رحيله يتيح لكل راغب إمكانية الإطلالة من جديد على العالم المدهش والممتع الذي بناه إميل حبيبي وظلّ يشكّل منارة تنير الدّرب أمام الأجيال العربية وأمام الإنسانية جمعاء، بعد وفاته، كما كانت الحال في حياته.

(النّاشر)




ISBN 965-7388-03-1
9 789657 388037